
روايات مصرية للجيب
أسطورة
حارس الكهف
ما وراء الطبيعة
٧
Looloo
www.dvd4ararb.com



أسطورة حارس الكهف

المقـــدمـة

لقد انصرفوا أخيرًا..!!

والآن أستطيع أن أغلق باب مكتبى علىّ .. وأجلس فى ضوء الأباجورة الخافت أحسو الشاى وأكتب لكم قصة جديدة ..

هل تذكروننى ؟.. إننى أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) ، الشيخ المتهـالك الذى عـاش وحيدًا ويمـوت وحيدًا فى مساء ما .. أنا صائد الأشباح الهاوى .. متعقّب الأساطير حيث كانت .. أنـا الذى صارع المذءوبين ، وطـارده (الزومبى) ، وأمسك برأس (ميدوسا) و ... و ....

تسألوننى من هم أولئك الذين انصرفوا ..؟!

كلّا يا رفاق !.. لقد كانت زلّة قلم .. لنقُل إننى أرغب فى الاحتفاظ بهذا السّر فى الوقت الحالى .. أو ـ حتّى لا أثير فضولكم أكثر ـ لنقُل إنه لم يكن عندى أحد !.. اتفقنا ؟..

ربما أصارحكم بالمزيد يومًا .. ربما بعد أن أحكى لكم مغامرتى الثلاثين أو الأربعين أو المائة .. أما أن أحكيها الآن .. فمستحيل!.. دعونا من هذا ولنعد لموضوعنا ..

هل أحكى لكم اليوم قصتى مع د. (لوسيفر) ؟ أم قصتى مع (براكسا) فتاة المقابر ؟ أم قصتى مع (المزبيرة) ؟!..

لا.. لا داعى، لأن هذه القصص لا تناسب حالتى النفسية اليوم..

سأحكى لكم قصتى مع حارس الكهف..

متى حدثت بالضبط ؟.. لا أذكر فى الواقع.. لاشك أنها - على الأقل - قد حدثت بعد لقائى فى اليونان مع رأس (ميدوسا).. وبالتأكيد قبل تعرضى للعنة الفراعنة..

إنها قصة شنيعة.. لكنكم سعداء الحظ لأنكم تقرءون هذه الأحداث ولم تعيشوها.. وإننى لأحسدكم حقًا !..

هل استعددتم ؟.. هل أصدقاؤكم حولكم والأنوار مضاءة ؟..

إذن أصغوا إلىّ..

١ - إنـه قـادم !

حين لمحنا آثار الأقدام المخلبية مرسومة فوق الرمال الرطبة.. وحين رأينا خيط الدم الذى لم يجف بعد يتلوى فوق الأرض، راسمًا رقصة الموت المجنونة.. وحين لمحنا السترة الممزقة، وكأنما فرّ من داخلها جيش من الشياطين..

وحين لمحنا الحيرة والهلع فى عينى البروفسير (باولو)..

عندئذ - وعندئذ فقط - فهمنا أن حارس الكهف حقيقة.. وأنه حرّ طليق.. وأنه يريدنا..!

★ ★ ★

شرع رجال (التبو) يتهامسون ويتبادلون الكلام بلهجتهم التى لا أفهم منها حرفًا.. إلا أن كلمة أو اثنتين وصلتا لمسامعنا :

- « العسّاس !.. العسّاس » !

قال لى البروفسير (باولو) فى حيرة :

- « ما معنى هذه الكلمة »؟..

ـ « إنها تعنى (الحارس) .. وهى كلمة عربية فصحى » ..

ـ « إذن هم أيضًا يفكرون فيما نفكر فيه » ..

ـ أشعلت سيجارة ثالثة ، ونفثت دخانها فى الهواء .. وقلت :

ـ « لا توجد طريقة أخرى للتفكير على ما أظن » ..

وشرعت أعابث الرمال بطرف حذائى .. كان الحرّ خانقًا .. وذباب الصحراء المسعور يحاول التهام وجهى .. والعرق يغمر ما تحت إبطى ، لكنى كنت غافلًا عن كل ذلك ..

لو أن (العسّاس) موجود حقًا فى هذه الصحراء .. لو أنه موجود حقًا فى هذا العالم .. فلن تكون أمامنا فرصة للنجاة ..

ولكن الأمر لم ينته بعد .. يجب أن نجد جثة (أحمد) أو جسده الجريح ، ثم نبنى خططنا على هذا الأساس ..

وكان الرجال قد اتخذوا نفس القرار ..

★ ★ ★

فى المساء جاءوا به والقمر يفصح عن وجهه خلف الجبال ..

كنت جالسًا جوار النار أنا والبروفسير ، حين لمحنا الرجال عائدين فى مسيرة صامتة كئيبة ، متسربلين

بلون الغروب الأرجوانى .. ملثمين كما هم دائمًا ، لكن عيونهم تنطق بالخطر والتوتر ..

وعلى الرمال ألقوا الجثمان ، ووقفوا يتبادلون النظرات ..

نهضت ـ فى توجس ـ إلى الجثة ، وشرعت أتفحصها .. وتحرك البروفسير واقفًا جوارى .. وسمعت شهقته .. ثم أنه هرع مبتعدًا ..

قال لى (محمود) وهو يبعد عينيه قدر الإمكان :

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « كما ترى .. »

ـ « إذن هى ليست الذئاب ؟ »

طلبت منه أن يشعل سيجارة ويدسها فى فمى .. سيجارتى المائة فى هذا اليوم الشنيع .. السعال يتحشرج فى صدرى ، وحنجرتى تتقلّص ، لكنى لم أكن أدرك شيئًا عن هذا الذى أفعله ..

ـ « كح كح !.. بالطبع ليست الذئاب .. كح !.. لم يُخلق بعد هذا الذئب الذى ... كح » !!

مد يدًا مرتجفة وأخرج السيجارة من فمى ، لأستطيع الكلام بوضوح .. فقلت مردفًا :

- « .. لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية ، ويديره فى الاتجاه العكسى ..
ولا يوجد ذئب يمتص دماء الضحية .. وأبدًا لم يوجد ذئب يترك آثار أقدام مخلبية عملاقة على الرمال » ..!

اقترب منا البروفسير متسائلا .. فنقلت له ما قلت بالإنجليزية .. أما (محمود) فقال له بضع عبارات بالإيطالية جعلت لونه يتمقع ..

إن حارس الكهف يريدنا ..

لقد أثرنا غضبه .. أيقظنا العملاق النائم ...

وعلينا أن ندفع الثمن ..!

* * *

اقترب منا (كريم) زعيم هذه المجموعة .. وعيناه خلف اللثام تلتمعان بإصرار وغضب لا يُوصفان :

- « سيّدى .. يجب أن نعود » ..!

وعلى الفور دوّى صوت (محمود) مترجمًا بالإيطالية ما قاله الرجل الملثم .. الذى أردف :

- « إن (العسّاس) قد تحرك .. وآباؤنا جميعًا قد حكوا لنا معنى ذلك لهذا لن ننام .. ولن نستريح حتى نأمن فى ديارنا » ..

الترجمة تتواصل ، ووجه البروفسير الخامل يتبدل فى ضوء اللهب المتراقص .. الغضب يلتمع فى عينيه .. ثم يصرخ .. و (محمود) يترجم هذا الصراخ إلى عبارات عربية حاول أن يجعلها غاضبة :

- « لكنكم تلقيتم أجركم مقدمًا » !

فى برود قال (كريم) :

- « تلقينا أجر إرشادكم إلى الكهوف ، ولم نتقاض أجر إدخالكم فيها بعد .. وعلى كل حال نحن لا نريد شيئًا سوى أن نعود لأطفالنا ..
وندعوكم للعودة معنا قبل أن يغدو ذلك متعذرًا » ..

- « هذه الصفقة ليست أمينة »!

تحسست يدا (كريم) البندقية .. وازداد غضبًا :

- « إن الجحيم نفسه يشمئز من خائن الأمانة .. هذا هو شعارنا نحن الطوارق » ..

إن هذا المخبول - البروفسير - قد داس على الوتر الحساس لهؤلاء الرجال بغضبته الإيطالية ، التى لا تعرف حدودًا (كعادة أهل بلده) .. ومن الواضح أن هؤلاء (التبو) المهذبين الصموتين سيفجّرون رءوسنا ببنادقهم ، إذا ما استفززناهم أكثر من ذلك ..

- « بروفسير .. أرجوك .. يكفى هذا » ..

قلتها وأشعلت سيجارة .. وشرعت أسعل :

- « كح !.. دعهم يذهبون .. كح !.. ولنذهب معهم !.. لقد شاهدنا كل ما ينبغى أن .. كح !.. نشاهده .. والأعصاب متوترة ، فلا تزد الموقف تعقيدًا .. كح» !

تحول حنقه تجاهى .. وهتف :

- « أنت ومدخنتك!.. لقد سئمت تراخيك وجبنك ورائحة سجائرك ..!.. أطفئ هذه السيجارة وإلا فلن يجد هذا الوحش شيئًا يقتله .. وإذا شئت أن تتبع هؤلاء (التبو) فافعل .. لن ألومك على شىء .. هيًا !.. اذهب!.. اذهب » !..

كدت أرد عليه صارخًا بما يتناسب مع وقاحته .. إلا أننى أدركت أن هناك نوعًا من الكهرباء فى الجو تجعل الجميع يصرخون ، فلا داعى لأن أزيد هذا التوتر بشرارة إضافية ..

ودون كلمة أخرى أدرت ظهرى متأبطًا ذراع (كريم) ...

صاح البروفسير فى دهشة :

- « إلى أين تظن أنك ذاهب » ؟

- « يا له من سؤال !.. أنفذ أوامرك طبعًا » ..

وأمام نظراته المذهولة بدأ (التبو) يركبون جمالهم .. وتعالت أصوات هذه الحيوانات المرعبة ، وهى تنتصب على أقدامها .. أحدها وضعوا عليه جثة (أحمد) المشوهة .. أما أنا فاتجهت إلى جملى واعتليت ظهره .. ها هوذا الكابوس يبدأ حين ينهض هذا المخلوق .. ويقذفنى للأمام .. ثم للخلف .. ثم للأمام .. ثم يستقر على أقدامه .. ويبدأ السير فى تؤدة خلف القافلة .. ، كانوا قد دفنوا الجثة ولم يعد هناك ما يدعوهم للبقاء ..

- « جبناء» !

دوت صرخة البروفسير حيث تركناه هو و (محمود) واقفًا يرمقنا فى ذهول .. ، كانا واقفين وحيدين جوار النار غارقين فى ضوئها الذهبى المتراقص .. والصحراء المظلمة الساكنة تمتد حولهما إلى ما لا نهاية ..

وأنا أبتعد .. أبتعد .. أبتعد مع القافلة ..

حتى لم أعد أرى أثرًا لهما ..

* * *

لمدة عشر دقائق كاملة لم تفارق ذهنى صورتهما واقفين وحيدين فى الصحراء ، ينتظران مصيرهما الغامض .. وأدركت أن هذا المشهد سيؤرق نومى لعدة سنوات قادمة ..

لقد اتفقنا على كل شيء .. ولم يجدّ جديد .. فلماذا أنسحب ؟..

بدأ التردد يزحف على تصميمي .. والندم يغسل آثار غضبى .. لهذا ـ ودون كلمة ـ أدرت مقود جملى عائدًا إليهما ..

لم يحاول واحد من الرجال أن يمنعنى أو يقنعنى .. بل إنهم لم ينظروا نحوى أساسًا ..، إن هؤلاء القوم يؤمنون تمامًا أن الإنسان هو سيد مصيره ، وأن القدر لا يتبدل ..

وهكذا .. شرع الجمل يمشى الهوينى عائدًا إلى مكان المعسكر ، حيث النار تلقى بضوئها فوق الرمال ..

سأخوض المغامرة بكاملها معهما .. وحين تنتهى ، لن يكون علينا سوى أن نمضى بجمالنا إلى أحد طرق القوافل ، التى صرنا نعرفها الآن تمامًا .. ومعنا ما يكفى من الطعام والماء .. معنا أسلحتنا وذخائرنا ..

فأى خطر هناك ؟!..

هكذا قلت لنفسى وأنا أرمق الصحراء المظلمة من فوق جملى .. وكما توقعتم .. كنت ساذجًا .. ساذجًا إلى حدّ لا يصدق !

هل توجد سذاجة أكثر من أن أترك مكانى الآمن بين هؤلاء الرجال الأشداء ، وأعود وحيدًا عبر الرمال إلى الكابوس الذى ينتظرنى ؟

هل توجد سذاجة أكثر من أن أشعر بشعر الجمل ينتصب على مؤخرة عنقه .. وحركاته تزداد عصبية وبرغم هذا أستمر ؟!

هل توجد سذاجة أفظع من أن تنطفئ النار البعيدة فجأة ، وأسمع صوت صرخة شنيعة لإنسان يُمزّق حيًا ، وبرغم هذا أطمئن نفسى بأنها الرياح ؟!..

هل توجد سذاجة أشنع من أن تصرخ بى حاستى السادسة :

عُدْ .. عُدْ .. أرجوك أن تعود !، ثم أعزو كل هذا إلى جبنى الطبيعى ؟!

* * *

على أننى حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا ..!

فقط النار الخامدة ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء ..

وأسلحة مبعثرة ألمحها فى ضوء القمر الشاحب ..

وعلى الرمال آثار أقدام هنا وهناك ، تشى بشيء غير عادى .. شيء مرعب قد حدث منذ دقائق .. يجب أن أنزل من على متن الجمل لأرى ما هنالك ..

ولكن ... ثمة مشكلة صغيرة ..

أنا لا أستطيع أن أنيخ جملًا !.. لابد لأحدهم أن يفعل هذا لى وإلا قضيت باقى حياتى فى نفس المكان !، والمشكلة



حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا .. ! فقط النار الخامدة ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء ..

الأسوأ هى أننى لو وثبت من فوقه سأهشم ساقىّ حتمًا .. وحتى لو لم يحدث ذلك فكيف أعود إلى ظهره إذا أردت الرحيل ؟!..

إذن لم يبق أمامى سوى أن أنادى بأعلى صوتى :

ـ « محمووووود » !

لا رد ....

ـ « بروفسير باااااولوووو » !

أين ذهب هذان الأحمقان ؟.. ومن الذى أطفأ النار ؟.. ومن الذى صرخ ..؟

أشعلت سيجارة أخرى شاعرًا بالامتنان لعبقريتى ، التى جعلتنى آخذ معى كل هذه السجائر قبل القيام بالرحلة .. لقد حدث شىء ما لكننى لا أصدق أن يكون شيئًا سيئًا .. إن الأشياء السيئة لا تحدث بهذه السرعة ، وبمجرد أن أدار (التبو) ظهورهم ..

إذن علىّ أن أجدهما .. أو أهرع للحاق بالرجال قبل أن أفقد أثرهم .... إن المزيد من الصراخ لن يضر أحدًا :

ـ « محمووووود » !..

أسمعكم تقولون لى : لاتصرخ !.. لاتدعه يسمعك ..!...

هذا صواب ولكنى ـ كما قلت لكم ـ لم أكن أتوقع شرًا .. كيف لى أن أعلم أن هذا الصراخ سيجعله يسمعنى ؟ أو أن رائحة التبغ ستجعله يشم رائحتى ؟ أو أن توتر عضلات الجمل من تحتى ، لايعنى سوى شىء واحد ..؟

أنه هو .....

ها هو ذا قادم من أجلى ..

خارجًا من أعماق الجحيم ، متدثرًا بالظلام وضوء القمر الفضى ..

العسّاس ...!

٢ ـ القارة المفقودة ..

ولكن دعونا من كل هذا الهراء ..

لماذا أضيع وقتى ووقتكم بالثرثرة فى مواضيع لاتهم سواى ، فى حين كنت أنوى أن أبدأ قصتى بالحديث عن رحلتى الى (ليبيا) ؟!..

كما قلت لكم لا أذكر العام ..

لا أذكر العام .. ولا سبب الزيارة .. لابد أنها كانت مهمة علمية ما ، ولابد أننى كنت عائدا لتوى من (اليونان) ، بعد قصتى المؤسفة مع رأس (ميدوسا) حين حدثت هذه القصة ..

إننى حتى لا أذكر اسم الفندق ..

لكنه كان فندقًا مريحًا فى (طرابلس) .. قضيت فيه أسبوعين ، بعد أن انتهت مهمتى هنالك ..

وكالعادة ـ كما يحدث فى قصص (رايدار هجارد) ـ بدأت القصة فى قاعة التدخين !.. أعنى بالطبع استراحة الفندق ..

كنت قد تعرفت على مهندس ليبى اسمه (محمود) كان قد عاد لتوه من رحلة دراسة فى (إيطاليا) .. ولقد أثارت دهشتى تلك السرعة التى التأم بها الجرح الدامى، الذى تركه الإيطاليون فى (ليبيا) وشعبها الطيب، بعد احتلال بدأ من عام ١٩١١ وارتكتب فيه أفظع الفظائع ..

- « كان جنرالهم السفاح (جراتزيانى) » - قال لى (محمود) - « يربط أهل (فزان) بحبل طويل بعضهم إلى البعض، ثم يرمى بهم من الطائرة » !

- « يا للهول » !!

وشعرت بقشعريرة تغزو عمودى الفقرى .. هل الإنسان حقًا متوحش إلى هذا الحد ؟.. إن الذى كان يقترف هذا، هو لابد بشرى مثلنا، له زوجة وأطفال .. ويصاب بالصداع والإسهال .. ويحب الفاكهة وليالى الصيف .. فما الذى يحدث له كى يغدو سفاحًا ..؟

- « إنها الفاشية والعنصرية .. تحيلان الإنسان إلى سفاح يرتوى بالدماء .. أى إنسان » ..

قالها (محمود)، وهو يمرر يده على شعره الأشعث المميز لكل أبناء المغرب العربى .. الوجه الأسمر النحيل الحزين .. والشعر الثائر غير المصفف بعناية، والعينان الحساستان إلى أقصى حد .. كان شديد الذكاء .. ولقد قال لى فى مرارة :

- « نحن بحاجة إلى العلم .. وهؤلاء الناس يملكون العلم .. لهذا قهرونا وعذبونا .. أما اليوم فإن مهمتنا المقدسة، هى أن نتعلم منهم كل شىء .. كل ما يعرفون ..، ولهذا لم أجد غضاضة فى أن أذهب إلى (إيطاليا) كى أتعلم » ..

ابتسمت مؤيدًا كلامه .. أنا نفسى درست فى (انجلترا) التى احتلت وطنى سبعين عامًا .. ومثله لم أجد غضاضة فى ذلك ..

- « أعتقد أن غزاة كثيرين توقفوا عندكم » ..

نفث دخان سيجارته .. وابتسم :

- « كثيرون ..!.. قديمًا احتلنا البربر قادمين من أسبانيا - ونسميهم (الفاندال) - ثم جاء الرومان .. وفى القرن السادس عشر، جاء الأتراك الذين ظلوا يحكموننا بأسرة باشوات (القرمنلى) الشهيرة .. ثم جاء الإيطاليون بحكمهم المشئوم .. كل هؤلاء جاءوا .. وكلهم ذهبوا » ..

ثم ضيق عينيه وابتسم فى خبث :

- « وأحيانًا يقال إن هناك غزاة آخرين لا تعرفهم » !

- « ماذا تعنى » ؟

- « لاشىء .. مجرد تكهنات وأحاديث علماء غير مجربين » ..

ـ « لكنك ـ حقًا ـ قد أثرت فضولى » ..

قال وهو يطفئ سيجارته فى شىء من العصبية :

ـ « د. (رفعت) .. أنت رجل مثقف كثير الأسفار .. فلا تقل إنك لم تسمع عن تلك الهضبة » .

ـ « أية هضبة » ؟

قال بصوت عال نافد الصبر :

ـ « هضبة (تسيلى) طبعًا » !

* * *

على المائدة المجاورة ، كان هناك رجل يرمقنا فى اهتمام .. رجل فى الستين من عمره ، من الواضح أنه أجنبى .. وكان دقيق الملامح والأطراف إلى حد غير عادى ، كأنه دمية متقنه الصنع .. أما وجهه الخامل الخالى من التجاعيد ، فكان يحمل عينين زرقاوين متسعتين فيهما شىء من الخبال ..

هذا الرجل عالم .. هكذا قلت لنفسى على سبيل الفراسة ، ولم أكن بعيدًا عن الصواب .. هذا الرجل عالم ، وقد استرعت انتباهه كلمة (تسيلى) ، وهو حتمًا سيحاول التعرف علينا ليفضى إلينا بأسرار مروعة عن هذه الهضبة ، تضيف كابوسًا جديدًا إلى كوابيسى ..!

هكذا توقعت .. ولقد نفذ الرجل هذا (السيناريو) حرفيًا ..!

ها هو ذا ينهض ..!.. ها هو ذا يقترب .. الوغد !.. إنه ينحنى ويتحدث بالإيطالية فيرد عليه (محمود) ، داعيًا إياه كى يجلس .. يجذب الرجل كرسيًا .. وفى مرح يفرك يديه .. ثم يقول بالإنجليزية :

ـ « لقد طلب منى السيد أن أتحدث بالإنجليزية التى يفهمها ثلاثتنا .. وإنه ليشرفنى أن أتعرف على سيدين مهذبين مثلكما » ..

كانت إنجليزيته مضحكة كأكثر الإيطاليين ..

ـ « اسمى هو (باولو جيرالدى) .. البروفسير (باولو جيرالدى) .. أستاذ التاريخ القديم بالجامعة .. ولقد سمحت لنفسى أن أصغى السمع إلى محادثتكما ، التى لم أفهم منها كلمة واحدة بطبيعة الحال ، سوى (تسيلى) .. ومن المدهش أن نفكر فى نفس الشىء فى نفس اللحظة » ..

حين انتهى من كلامه ، كانت قطرات العرق تغمر جبينه .. واللعاب يتناثر من شفتيه .. مخبول حقيقى لكنه لن يفسد أمسيتى ..

ـ للأسف إننى لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع فأنا مصرى » ..

ـ « آه !.. لكنكم تتشابهون تمامًا معشر العرب .. تتشابهون تمامًا » ..

ثم إنه استدعى النادل وطلب منه أن يحضر لنا ثلاثة أكواب من عصير البرتقال المثلج ، وشرع يثرثر دونما تحفظ :

ـ « إن هــذه الـهضــبة التى تقــع ما بين (ليبيـا) و (الجزائر) ، لتحوى لغزًا من أكثر ألغاز البشرية غموضًا .. وقد قيل إنها هي الدليل الذى لايُدحض على وجود حياة فوق الكواكب الأخرى » ..

بدأت أتحفز فى جلستى .. إن الحديث يأخذ صبغة تثير اهتمامى إلى حد كبير ، خاصة وأننى أجهل كل شىء عن هذا الموضوع ..

قال (محمود) وهو يرشف من كوبه أول رشفة :

ـ « ربما قيل هذا .. لكن الاعتقاد الأعم هو أن هذه الهضبة تخفى تحتها قارة (أطلنطس) » !!

وثبت فى ذهول مستندًا بذراعىَ إلى المائدة :

ـ « (أطلنطس) ؟.. هل تمزح » ؟..

ـ « لا مجال لذلك » ..

ـ « لكن (هيرودوت)(*) قال إنها تقع فى المحيط الأطلسى .. وبالتحديد فى تلك الفجوة ما بين المغرب وأمريكا الشمالية » :

(*) مؤرخ يونانى عظيم .

قال (محمود) فى حيرة وهو يحك شعره الأشعث :

ـ « لا أدرى عن ذلك شيئًا .. لكن معلوماتى هى أن (هيرودوت) قال إنها فى الصحراء الكبرى .. وأن الزلزال ابتلعها » ..

ـ « يعنى هذا أنها ليست قارة بل هى بلد » ..

ـ « بالفعل » ..

ابتسم البروفسير الإيطالى فى رزانة وقال :

ـ « على كل حال هنـاك شكوك عدة فى نظريـة (أطلنطس) هذه .. منها أن علماء (الجيولوجيا) لم يجدوا آثار زلازال فى الصحراء الكبرى .. وبالتالى لا يمكن أن توجد هناك قارة تحت الأرض » ..

ثم إنه شرع يفكر هنيهة .. واستطرد :

ـ « نظرًا لأننى أعمل فى مجال التاريخ ، فقد استرعت انتباهى قصة الكشوف التى قام بها (هنرى لوت) عام ١٩٥٦ ، مع قافلة من العلماء .. واللوحات التى وجدوها على جدران الكهوف .. ويؤكد العلم ـ بالتحليل الذرى ـ أنها رُسمت منذ عشرين ألف سنة .. تخيلوا هذا !.. مائتى قرن ..!!.. منذ مائتى قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم ..!.. ولا أبالغ كثيرًا إذا ما قلت ، إننى ـ من أجل هذا ـ جئت إلى (ليبيا) » ..

ثم ابتسم فى شىء من المرارة وقال :

ـ « إنها الحقيقة .. الحقيقة التى لا تقدر بثمن ، والتى ستهب العلم مرونة لا تُقاس .. الحقيقة » ..

هنا ابتلعت ريقى .. متى سبق لى سماع هذه العبارة ؟.. هل هو نوع من ظاهرة الـ (ديجافو)(*) التى تجعلنا نتخيل أننا عشنا هذا الموقف من قبل ، وسمعنا نفس الكلمات ؟.. أم أننى حقًا سبق لى سماع ذلك ؟..

آه !.. د. (رتشارد كامنجز) ..!.. قالها لى يومًا منذ عشر سنوات تقريبًا ، حين وقفنا أمام مومياء (دراكيولا).. نفس الكلمات .. ونفس لمعة العين المجنونة ..!..

قال (محمود) فى شىء من الفتور :

ـ « لكنها مجرد تكهنات » ..

ـ « تكهنات » ؟!

صاح البروفسير الإيطالى فى عصبية :

ـ « إذن كيف سيكون الحال لو غدت حقائق ؟.. لوحات غامضة فى كهف سحيق ، يقولون إنها رسمت منذ مائتى قرن .. واللوحات تمثل رواد فضاء ورجالًا يطيرون .. فماذا ينقصنا كى نفهم ؟!.. أن ينزل لنا طبق طائر به رجل أخضر له (إيريال) ويحمل بندقية (ليزر) » ؟!..

(*) (ديجافو) Degayo لفظة فرنسية تعنى (شوهد من قبل) ..

تنحنحت .. ثم قررت أن أتوكل على الله ، وأقول كلمتى التى لن تسعد هذا المخبول حتمًا .. لكن سأجن لو لم أقلها :

ـ « اسمعنى يا (بروفسير) .. أنت تعرف أن كل هذا الهراء عن سكان الكواكب الأخرى » ..

ـ « هراء » ؟!!

ـ « إنها عنصر جذب لا ينتهى ، للعلماء .. وللأثرياء المعتوهين .. وصنّاع أفلام الخيال العلمى ، الذين يُعانون ضائقة مالية و ... » .

ـ « مالية » ؟!!

لحسن الحظ أننى لا أفهم الإيطالية ، لأن سيلًا من السباب ـ المقذع بالتأكيد ـ انهال على رأسى .. سباب جعل وجه (محمود) يحمرّ كحساء الطماطم .. وجعل كل من بالقاعة يرمقوننى فى فضول ، كأننى عار تمامًا ..

كنت أنا ـ لأننى لا أفهم حرفًا ـ ما زلت جالسًا محتفظًا بهدوئى ، وابتسامة السخرية الخافتة على ثغرى ..

ـ « إذن أنت لا تؤمن بوجود مخلوقات عاقلة على كواكب أخرى » ؟

قلت فى رزانة :

ـ « عاقلة أو غير عاقلة .. لا يوجد شىء » ..

نظر لى (محمود) فى حيرة .. وغمغم :

ـ « عجيب هذا !.. قلت لى يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة ..

وأن لك خبرة هائلة فى هذه الأشياء » ..

ـ « لى خبرة .. ولكن كنت مجبرًا فى كل مرة على أن أنغمس فى هذه الأمور .. ومازلت أرى أنه من السفه تضييع الوقت والمال فى شىء كهذا ، على حين تزخر الحياة بالألغاز المفيدة ، التى تستحق تفسيرًا ـ والتى يمكن أن نجد هذا التفسير لها ـ مثل : لماذا نصاب بمرض السرطان ؟.. لماذا لا تنجح أمصال الأنفلونزا ..؟.. لماذا تتصحّر (أفريقيا) ؟.. وكيف نوقف تلوث الأجواء ..؟.. هذا هو المجال الوحيد الذى تفيد فيه الأسئلة .. هل يمكنكما أن تخبرانى بجدوى معرفة ، أن هناك كهوفًا رسمت عليها مخلوقات فضائية فى زمن غابر ؟..

هل ستجدان إجابة على أسئلتكما ؟.. وإذا وجدتماها .. فما هى الجدوى » ؟..

ثم أشعلت سيجارتى فى عصبية وأردفت :

ـ « إن الحياة معقدة بما يكفى ، وليس من الحكمة أن نغرق أنفسنا فى ضلالات وأسئلة بلا إجابة .. مادامت هناك أسئلة أخرى لها جدوى ولها إجابة إذا ما بذلنا شيئًا من الجهد » ..!

لعدة دقائق ساد الصمت ، إلا من صوت أنفاسنا .. ثم قال (باولو) :

ـ « هل أنهيت كلامك » ؟!

ـ « ليس تمامًا .. لقد قابلت كثيرين من المعتوهين ، أحدهم يحاول إعادة مومياء (دراكيولا) إلى الحياة .. وأحدهم يحاول إثبات أن وحش (لوخ نس) حقيقة .. وأحدهم يؤكد أن (ميدوسا) لم تكن أسطورة ... ثم ماذا ؟.. ماذا استفادته البشرية واستفدت أنا من كل هذا ؟.. لاشىء .. فقط ساعات عصيبة من التوتر والرعب .. وليال مؤرقة .. وذكريات سوداء » ..

التمعت عينا (باولو) فضولًا ، وبدا لى أنه نسى كل ما قلته من قبل ، وشرع يسألنى فى حماس عن كل هذا الذى سمعه .. وأين ومتى وكيف عرفت هذه الأساطير ؟..

فقلت له فى جفوة :

ـ « مرة أخرى يا بروفسير .. أؤكد لك أننى لست (صانع أساطير) بل (هادم أساطير) إذا جاز لى أن أقول هذا » ..!

حتى منتصف الليل شرعت أثرثر .. وهما يسمعان نصف منبهرين ونصف مكذبين .. وحين دقت الساعة منتصف الليل ، تثاءب (محمود) وقال إنه يرغب فى

النوم .. ووافقته أنا .. أما البروفسير ، فكان شارد الذهن إلى حد ما .. وقد شعرت أن قصصى أوحت إليه بفكرة معينة ..

إن مناقشتنا عن كهوف (تسيلى) لم تنته بعد ، وقد بُترت بترًا .. لكنه لابد عائد إليها فى الغد .. لهذا يجب أن أعود إلى الفندق فى ساعة متأخرة طيلة الأسبوع القادم .. فإذا كان هو يملك من الصحة والصبر ما يسمح له بالثرثرة ، فأنا لا أملك منهما ما يسمح بالاصغاء ..!

★ ★ ★

فى غرفتى شرعت أكتب خطابًا لـ (هويدا) .. هل تذكرونها ؟.. (الإسكندرية) وزيارتى لـ (عادل) وشقيقة زوجته .. ألخ ؟.. كنت ـ حين قابلتها ـ متورطًا في كابوس آكل بشر وهمى .. ولم أكن أعرف أننى أوشك على التورط مع آكل بشر حقيقى !.. لكن دعونا لا نستبق الأحداث ..

« عزيزتى (هويدا) ....

أكتب هذا الخطاب فى غرفتى بالفندق .. والشوق يقتلنى ، لأن ذكراك الجميلة لا تفارقنى ... و ... » .

ما هذا الهراء ؟!!..

إن هناك بائعي جرائد كثيرين ، كتبوا لحبيباتهم الخادمات خطابات أكثر حرارة ورقة ، وأقل افتعالاً ..!..

إنها مجرد كلمات .. فلا الشوق قتلنى ولا أنا أذكر وجهها أصلًا ..! إنها مجرد حالة حب صناعية أحاول أن أصب نفسى فيها ، لعلمى أن هذا هو واجبى نحو من ستكون زوجتى يومًا ما .. ثم إن رجلًا فى الأربعين لخليق بأن يكتب خطابًا أكثر رقيًا من خطاب مراهق فى الرابعة عشرة ..

مزقت الخطاب السخيف .. حين دق الباب ..

ـ « ادخل ..! » .

فلم يدخل .. إن معنى هذا هو أنه لم يفهم ما قلته .. وما دام لم يفهمه فهو ليس عربيًا .. ما دام ليس عربيًا فهو ..

ـ « ادخل يا (بروفسير) » !

قلتها واعتدلت فى جلستى .. فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر .. وكان يمسك موسى الحلاقة في يده .. ووجهه مغطى برغاوى الصابون !.. إذن هو كان فى غرفته يحلق ذقنه بثياب النوم حين ..

ـ « .. جاءتنى فكرة غير عادية » !!

قالها بحماس مجنون .. فهززت رأسى موافقًا .

ـ « هذا واضح » !



فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر ..
وكان يمسك موس الحلاقة فى يده ..

ـ هل تعرف هضبة (تسيلى) » ؟
ـ « وفيم كان حديثنا هذه الليلة إذن » ؟
ـ « سنذهب لهناك » ..!
ـ « ماذا » ؟
ـ « نعم !.. أنا وأنت و (محمود) .. إعادة استكشاف .. أنا أملك الخبرة التاريخية ، وأنت تملك الخبرة بالمجهول ، و (محمود) من (فزان) حيث توجد الهضبة » ..!..
والتمعت عيناه فى هستيريا حقيقية :
ـ « ستكون أجمل تجربة فى حياتك » !

٣ ـ دعونا نـر !!

ـ « بروفسير (باولو) .. أعتقد أننى كنت واضحًا تمامًا فى إظهار عدم اهتمامى بهذه القصة .. واضحًا إلى درجة الفظاظة » ..!

ـ « لكنك لاتفهم » !

قالها واتجه إلى فراشى ليجلس عليه دون دعوة .. وأردف :

ـ « إنها لغز الألغاز .. سر الأسرار .. إنها المرآة المسحورة التى ستقودنا إلى عالم آخر، له مقاييس أخرى » ...

أشعلت سيجارة .. وأمسكت حذائى، وشرعت ألمعه بالفرشاة .. قائلًا :

ـ « حسن .. سنصل للكهوف ونهبط فيها، ونصل إلى (الأطلنطس) حيث نجد مدينة كاملة متقدمة علميًا، ولهم ملكة جميلة تحبنى بجنون .. ثم يحدث زلزال وانهيار، وتدفن هذه الحضارة مرة ثانية، وننجو نحن .. أليس هذا ما تتوقعه ؟.. ثم ماذا بعد ذلك » ؟!..

قال فى نفاد صبر :

ـ « أنت تقرأ الكثير من قصص (رايدار هجارد) و (إدجار رايس بوروز)(*) ..!

ـ « كنت أظنك أنت الذى يقرأ الكثير منها » ..

ـ « هل أفهم من هذا أنك ترفض القيام بهذه الرحلة » ؟

شرعت أتأمل الحذاء الذى صار براقًا إلى حد مدهش .. وقلت :

ـ « أنا لا أرفض الرحلة .. أنت حرّ فى الذهاب إلى الجحيم إذا أردت، ولكن وحدك .. حين يسألنى أحدهم عما إذا كان يمكنه الذهاب إلى (ألاسكا)، فإننى لا أنهك ذهنى .. فليذهب !.. لا مشكلة لدىّ » ..

ـ « لكننى أريدك معى » ..!

ـ « هذا شأنك » ..!

وألقيت الحذاء على الأرض، وتناولت فردته الأخرى .. وأطفأت سيجارتى فى فنجان القهوة الذى برد قبل أن أشربه، على صوت احتجاج الرجل :

(*) الأول هو صاحب (عائشة) و (كنوز الملك سليمان)، والثانى هو صاحب (العالم المفقود) و (الأرض التى غفل عنها الزمن) وقصص (طرزان) الشهيرة ..

ـ « أنا بحاجة لرفاق رحلة .. لشهود .. وأنت وصديقك الليبى تصلحان تمامًا لهذا الغرض .. ظننتك شجاعًا مثقفًا » ..

ـ « وكنت مخطئًا .. أنا جبان جاهل .. فهل هذا كاف لتتركنى » ؟

وهنا ـ وللمرة الأولى ـ بدأت أخاف هذا الرجل .. إذ أننى حين رفعت عينى تجاهه ، وجدت العرق يغمر جبينه .. ونظرة مجنونة فى عينيه .. وكل جارحة فى جسده الضئيل ترتجف ..

ومن بين أسنانه .. صدر فحيح كفحيح الأفاعى .

ـ « د. (رفعت) .. إننى لم أعتد أبدًا سماع عبارات الرفض .. حين يريد (باولو جيرالدى) شيئًا ما ، فإنه يناله ، وليس على الآخرين أن يظهروا امتعاضهم !.. إنك ستقوم بهذه الرحلة » ..!!

وقبل أن أجد ردًا مناسبًا .. انغلق الباب من خلفه ، وتركنى وحيدًا أمسك بفردة الحذاء والفرشاة .. وأرتجف !

★ ★ ★

حين حكيت محادثة أمس لـ (محمود) ، بدا عليه السرور .. وشرع يصفق بيديه فى مرح ويضحك ، حتى احتبست أنفاسه .. وكان تعليقه :

ـ « أنك قد قدمت لهذا المعتوه ما يُسيل لعابه .. لقد فاقت حكاياتك كل خيالاته ، ولم يعُد يحتمل أكثر .. وسرعان ما تحركت أمنية خافية فى نفسه ، هى أن يراك ويرانى ، ويرى نفسه فى حملة عبر الصحراء لكشف المجهول » ..

ـ « المشكلة أنه هددنى » ..!

ـ « إنه لم يتخلص بعد من عقد المستعمر الإيطالى .. هذا هو كل شىء » ..

كنا جالسين فى مقاعد مريحة متراصة ، عند مدخل الفندق ، نرشف الشاى المعطر ، ونطالع جرائد وجدناها هنالك .. حين ظهر البروفسير ، وقد بدا عليه الهمّ والإرهاق ، بعد ليلة طويلة قضاها ـ بلا شك ـ يرسم مئات الخطط الوهمية ، ويكشف أسرار الكون ..

ودون كلمة واحدة اتجه نحونا .. وجلس على مقعد ـ كأنه حق مكتسب ـ وشرع يفرك يديه .. ثم طلب بعض الشاى وقال :

ـ « لقد أعددت كل شىء .. ويمكننا أن نرحل غدًا » !!

تبادلنا أنا و (محمود) النظرات .. إن هذا المخبول يتصرف ويتكلم كأنه لا إرادة لنا ولا رأى .. ماذا يريد منـا ؟..

ـ « بروفسير (باولو) .. لقد ظننتك فهمت ما قلته لك أمس » ..

صاح فى لوحة حقيقية :

ـ « لكننى قد درست كل شىء .. كل شىء .. مئات الاحتمالات والخرائط والمقالات التى تصف هذه الهضبة .. إنكما لن تخسرا شيئًا .. لقد جئت إلى (ليبيا) بهذا الهدف، لكنى شيخ هالك وفى أمس الحاجة إليكما » ..!

صحت فى عصبية وأنا أجذب (محمود) لنبتعد :

ـ لكن أحدًا لا يقوم برحلة كهذه على سبيل المجاملة .. ألا تفهم هذا » ؟

ـ « بلى .. ولكن » ..

ثم إنه جلس على المقعد يلهث، وقد بدا إنسانًا محطمًا منتهيًا ..

هل فهم أخيرًا أنه لا جدوى من الضغط ؟..

* * *

غدت حياتى فى هذا الفندق جحيمًا .. فهذا المعتوه يطاردنى فى كل مكان، ويواصل الإلحاح .. ويغرينى .. ويشرح لى خطة الرحلة ..

أسبوع كامل مضى علىّ فى هذه المعاناة البائسة، حتى أننى وجدت أن الحل الوحيد أمامى هو أن أغادر (ليبيا) .. أنا أستطيع أن أغادر الفندق، لكنى كنت قد ارتحت له جدًا .. وأستطيع أن أقتل البروفسير ـ وسأستمتع بكل لحظة أفعل ذلك فيها ـ لولا أننى لا أحب كثيرًا أن أنهى حياتى على المشنقة ..!..

إن الذبابة تستطيع أن تدمر حياتك، إذا ما كنت مثلى إنسانًا عصبيًا متوترًا .. فكيف أستطيع أنا ـ الذى يشرب مائة سيجارة يوميًا، ويبدل وضع قدميه ألف مرة فى أثناء الجلوس ـ أن يتحمل هذه الذبابة البشرية العملاقة .. اللزجة .. اللحوح ؟!..

نعم .. يجب أن أغادر الفندق فورًا ..

وهنا حدث شىء غير متوقع .. جاءنى (محمود) إلى غرفتى، وفى خجل أخبرنى أنه ينوى أن يقوم بالرحلة !.. ولم لا ؟.. إن الأمر يثير الفضول .. ثم هو ذاهب إلى (فزان) وطنه ومسقط رأسه .. وهو واثق أن الأمر ليس خطرًا، بدليل أن كل من زاروا هذه الكهوف عادوا سالمين ..

ـ « إن هضبة (تسيلى) » ـ هكذا قال لى ـ « هى أقرب إلى أحد المعالم السياحية التى يجب أن تراها .. مثلها مثل قوس نصر (ماركوس أوريليوس) الذى حرصت على رؤيته هنا فى (طرابلس) » ..

ثم إنه أخبرنى أن البروفسير يعتزم أن يقوم بالرحلة فى طائرة مروحية وليس على ظهور الجمال كما فعل (هنرى لوت) منذ عشر سنوات .. وبالتالى لن تكون رحلة مرهقة ..

تدريجيًا ـ وتحت هذه الضغوط المكثفة ـ بدأت أجد الفكرة غير سيئة إلى هذا الحدّ .. لم لا ..؟.. على الأقل سأرى بعينى كل ما رآه هؤلاء العلماء الذين ذهبوا وانبهروا وعادوا سالمين ..

لم يتحدث أحد عن وجود مصاصى دماء ، أو أشباح ، أو وحوش خرافية فى هذا المكان .. وبالتالى لن تلعب موهبتى الخاصة ـ موهبة الذهاب إلى المصائب ـ دورًا فى هذه المغامرة ..

ثم إن (محمود) شاب عاقل ورزين ، ومعه سأعرف الكثير عن هذا الجزء من وطنى .. (ليبيا) ... والبروفسير مخبول لكنه مسلّ .. وأنا أحب هؤلاء العلماء المخبولين المسلين ..

نعم .. لم لا أوافق ؟..

صحيح أن الرجل هددنى .. صحيح أن دواعى الكرامة تقتضى أن أتشبث برفضى حتى النهاية ، لكن ما قيمة تهديد هذا الرجل الضئيل لى ؟.. وأية إهانة يمكن أن يسببها لى معتوه مثله ..؟

وهكذا ـ فى مساء ذلك اليوم ـ توجهت لغرفة الإيطالى .. وقلت له إننى أوافق على الذهاب معه فى هذه الحملة البائسة ..

* * *

من مكانى جوار النافذة ، شرعت أرمق الكثبان الرملية ونباتات الصبار المتناثرة فى الصحراء ، مفكرًا فى ما ينتظرنا ..

قال لى (محمود) بصوت عال كى يتغلب على هدير المحرك :

ـ « أ.. بادنا .. هابة ... آسعة » ...!

ـ « ماذا تقول » ؟.

فألصق فمه بأذنى صارخًا ، وشعره الأشعث يتطاير فى جنون :

ـ « إن بلادنا هى هضبة واسعة !.. صحراء جرداء تمامًا ، لأنه لا توجد جبال على الساحل تكثف المطر مثل (تونس) و (الجزائر) » ..

ثم نظر خارج النافذة وصاح :

ـ « لا .. ها ... بادى.. نا آبها » !!

ـ « لا أسمع » ..

ـ « إلا أنها بلادى .. وأنا أحبها » !!

كانت محركات الطائرة تهدر حتى لتمزق طبلتى أذنى .. ومروحتها الوحيدة تتموج فى المقدمة ، فى حين جلس الطيار الليبى (أحمد الادريسى) خلف ذراع القيادة .. وجواره البروفسير يردد عبارات حماسية لا تنتهى باللغة الإيطالية ..

كنا قد استأجرنا هذه الطائرة من أحد المطارات القديمة ، التى شيدها الإيطاليون قرب (سبهة) ، وهو مطار منسى لا يعلم أحد شيئًا عنه ..

وكانت هذه هى الطائرة الوحيدة التى وجدناها .. على الأقل كانت قادرة على الطيران ، دعك بالطبع من قدرتها على ألا تتهشم ، لأن هذا شيء بيد الله تعالى !..

وفى ذلك الزمن كانت هناك بقايا للنفوذ الأجنبى فى (ليبيا) .. لهذا ظلت (فزان) تحت النفوذ الفرنسى .. و (بنغازى) تحت النفوذ البريطانى ,. و (طرابلس) تحت النفوذ الإيطالى .. فى حين احتفظت الولايات المتحدة بقاعدة جوية واحدة هى (هويلس)(*) ..

ولهذا احتاج البروفسير إلى الحصول على تصريح للطيران من الجهات الفرنسية المسيطرة على (فزان) .. وحصل على هذا الطيار الليبى المشهود له بالكفاءة ..

وها نحن أولاء نتجه نحو الحدود الليبية الجزائرية ، حيث هضبة (تسيلى) التي لم أكن أعرف عنها شيئًا منذ أسبوع ..

كانت معنا أسلحة .. وأطعمة .. ومياه بكميات وافرة ، مع بعض أدوات الحفر والتسلق .. وكاميرا .. (وأخذت معى عشرات من علب السجائر على سبيل الاحتياط) .. وبعض الأدوية التى لا تصلح لعلاج أى شيء ..

(*) بعد ثورة سبتمبر صار اسمها قاعدة (عقبة بن نافع) .

سألت (محمود) وأنا أتفحص الحقائب :

ـ « .. أيف .. آنزل .. نره حراء ؟؟ .. أل .. آك .. أزّ » ؟

ـ « ماذا » ؟

ـ « كيف سينزل بالطائرة فى الصحراء ؟! .. هل هناك ممرّ » ؟

ـ « بالطبع لا .. وإلا استعمله (هنرى لوت) .. إنه يأمل فى العثور على مكان صالح لذلك فوق الرمال » !!..

ارتفع الدم إلى رأسى :

ـ « لكنكما معتوهان ـ أنت والبروفسير ـ ومن الواضح أن هذا الطيار ليس أفضل حالًا .. إن هذا سيؤدى إلى انغراس الطائرة فى الرمال ولن تعود للإقلاع أبدًا » ..!!

ـ يقول الطيار إنه سيحاول ألا يحدث هذا » ..!

ماذا أقول وماذا أصنع ؟.. وأى مأزق رميت بنفسى إليه ؟.. على أننى لم أر داعيًا لاستباق الأحداث .. لهذا قلت بصوت عال :

على كل حال لن تصل هذه الطائرة أبدًا » ..!

ـ لماذا تقول ذلك » ؟

ـ « لأن كل هذه الطائرات ذات المحرك الواحد لا تفعل شيئًا سوى السقوط بركابها فى أسوأ الأماكن .. البحر أو الصحراء ، والأدهى هو أن ركابها يظلون أحياء ليواجهوا ما هو أسوأ » ..!!

سمع البروفسير صوت صراخى ، فأدار جذعه ورأسه من المقعد الأمامى ليسألنى عن سبب الصراخ .. فمال (محمود) على أذنه وشرع يشرح له وجهة نظرى .. تلك الوجهة التي لم ترق له ـ طبعًا ـ فوجّه لى نظرة حادة قاسية .. وأدار ظهره لنا فى اشمئزاز ..

الصحراء لم تزل راقدة فى خمول تحتنا .. وفى كل ثانية تكشف لنا عن جزء من وجهها القبيح الأجرد المغطى بالبثور ..

مال (محمود) على أذنى وصرخ ولعابه يتناثر فى وجهى :

ـ « الصحراء الكبرى هى ربع مساحة (أفريقيا) .. أما ما تراه الآن فهو واحة (حمادة الأوبارى) .. بعدها (حمادة مرزق) .. ثم (نمات) ... » وأشار إلى مساحات شاسعة من الرمال .. وصاح :

ـ « بحر الرمال .. إن عرضه يصل لمائة وستين كيلومترًا .. والويل لمن يجد نفسه فيه » ..!

ـ « مثلنا » ..!

فنظر لى نظرة نارية ، كى أكف عن التشاؤم .... ونسّق شعره المبعثر ..

* * *

ثم بدأت الحشرجة ..!..

فى البدء لم تكن واضحة .. ثم بدأت تتعالى رويدًا .. رويدًا .. وعرفنا أن هذا الصوت قادم من المحرك .. المحرك الوحيد لهذه الطائرة !..

وبدأت المروحة تفقد انتظام حركتها .. والحشرجة تتعالى ..

الطيار قد فقد ثباته ووقار جلسته ، وأحمرت أذناه مما يدلّ على أن هناك مشكلة ما .. والبروفسير يسب ويلعن بألفاظ لا أفهمها .. ثم إنه التفت لى وصرخ ووجهه يرتجف غضبًا :

ـ « أنا .. عيد ؟.. آرك .. أد .. أقف .. إيأ » !

ـ « ماذا تقول » ؟

فقرب فمه من أذنى وعاد يصيح مكررًا ما قال :

ـ « أقول : هل أنت سعيد ؟.. إن المحرك قد توقف نهائيًا » !!..

وهنا توقف هدير المحرك .. وعدنا يسمع بعضنا البعض كأوضح ما يكون ..!!

ليتنى أغلقت فمى !

* * *

٤ ـ بحـــر الرمـــال ..

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا ، لكان هذا المشهد عبارة عن حشد من اللقطات السريعة المتلاحقة ، التى لا تزيد الواحدة منها على ربع ثانية .. يقوم بلصقها (مونتير) موهوب .. ثم يضيف إليها شريط صوت حافلًا بالصراخ والبكاء والعويل .. ولا بأس من موسيقا تصويرية سريعة توحى بالنهاية ..

ستكون اللقطات كما يلى ..

محرك متوقف .. طائرة تنحدر بسرعة لأسفل .. شفتان ترددان الشهادة .. عينان زرقاوان متسعتان .. يدٌ تجذب عصا التحكم فى هستيريا ..

العرق على جبينى .. الصحراء تقترب أكثر .. طائرة تنحدر .. يد تجذب عصا التحكم فى قوة مجنونة .. يد طفولية دقيقة تحاول التشبث بزجاج النافذة دون جدوى .. نظارة تتطاير ..

ثم تزداد سرعة الإيقاع .. وتقصر اللقطات ..

يد .. عصا .. طائرة .. عينان .. صحراء .. محرك .. ثم شخص أصلع يبحث جاهدًا عن نظارته التى انزلقت من على وجهه (هذا أنا طبعًا) ..

ثم الرمال تنتشر فى وجه المشاهد .. وتظلم الشاشة ..!..

هذا هو ما كان سيراه المشاهد لو أن هذا فيلم سينمائى .. أما والأمر حقيقة فإننى أكتفى بالقول إن الطائرة سقطت .. وقد نجح الطيار فى الهبوط بها بشكل شبه أفقى لهذا لم تكن الخسائر فادحة .. وتكفلت الرمال بدفن نصف الطائرة داخلها ، مما امتص الصدمة إلى حد كبير ..

لقد نجونا .. ولكن ماذا بعد ذلك ؟..

* * *

بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة ، بعد أن أزلنا أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها ..

كان البروفسير يغلى غضبًا .. وصاح فى وجهى وهو ينفض ذرات الرمال عن ثيابه :

ـ « هل رأيت أيها المنحوس ؟.. لولا تشاؤمك لما حدث شىء » !



بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة ، بعد أن أزلنا أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها ..

قلت فى برود :

ـ « بالعكس .. إن المتشائم يتوقع الشرّ فيجده ، أو يجد ما هو أفضل ، وبالتالى هو يحتاط لكل شيء ولا يؤمن بالحظ .. أما المتفائل فهو يتوقع الخير دائمًا ، وهذا شيء عسير ..، ولهذا يجد المتشائم فى كل وضع سيئ ما هو أفضل من توقعاته » ..!

ـ « وما هو الأفضل من توقعاتك هذه المرة أيها الفيلسوف » ؟

شرعت أفكر هنيهة ثم قلت :

ـ « لا أدرى .. على كل حال لم يُصب أحدنا فى هذه السقطة ، وهذه نقطة فى صالحنا .. يجب أن نكون بكامل لياقتنا حين تهاجمنا الذئاب » !!

ـ « ذئاب » ؟!

ـ طبعًا .. هذا شيء حتمى .. لو لم تر ذئابًا لشعرت أن هناك خدعة ما ..!.. ولابد كذلك من الظمأ .. وبعض السراب » !..

أعتقد أن القارئ يستطيع أن يخمن ما قاله البروفسير وقتها .. كل هذه الشتائم الايطالية المشينة التى لا أعرفها لحسن الحظ .. وإن كنت قد استنتجت معناها من احمرار أذنى (محمود) ...!

أما الأذن الأكثر احمرارًا فكانت أذن الطيار (أحمد) وهو يخرج من بين كثبان الرمل نادمًا على ذنب لم يقترفه ..

يا له من مأزق !.. أين نحن ؟.. وكيف سنعود ؟..

★ ★ ★

قال (محمود) وهو يمعن النظر فى البوصلة :

ـ « لاشك أننا قرب (نمات) الآن .. وهذا يعنى أننا وصلنا تقريبًا ..

كل ما علينا أن نجدّ السير » ..

قال البروفسير فى جدية :

ـ « .. فى أى اتجاه » ؟..

« بالتأكيد فى الاتجاه الجنوبى الغربى .. هذا هو اتجاه الحدود وربما الهضبة ..

ولربما قابلنا قافلة فى أحد المدقات » ..

قلت وأنا أجلس على الرمال الساخنة :

ـ « سيكون من الخطر أن نترك الطائرة .. ففيها الظلّ والمأوى » ..

نظر لى (محمود) نظرة باردة .. ودمدم :

ـ « هل تحب أن تظل هنا حتى تجفف الشمس عظامك ؟.. لا أحد يعرف مكاننا .. ولن يبحثوا عنا » ..

وهكذا شرعنا نخرج ما بالطائرة من مؤن .. وسلاح و ... ماء .. لاتنسوا الماء ! فلن نلبث يومًا حتى تصير القطرة منه أغلى من الجواهر .. ثم إننى حملت سجائرى .. وشرعنا نجدّ السير فوق الرمال ..

ما أقبح الصحراء !.. ذلك المشهد الرتيب الذى لايتغير ، لرمال وجبال قصية ونباتات صبار .. والرمال ليست صفراء زاهية كما تبدو فى الصور ، بل هى ذات لون رمادى متجهم ... وكلما دنوت من الجبال البادية فى الأفق ، بدأت تدرك أنها ليست جبالًا .. بل هى مجرد مرتفعات رملية تمشى فوقها ، وترى فى الأفق جبالًا جديدة ..!

الهباء !.. العبث !.. هذا هو ما تعنيه الصحراء لى ..

الشمس عمودية تملأ عينيك بالكرات الملونة حين ترفعهما لأعلى .. وعلى الرمال تتناثر مئات الشموس .. آلاف .. ملايين .. كلها تصب أشعتها عليك .. وقدماك تغوصان .. تغوصان ..

وجلدك يلتهب دون عرق ... و ...

وسقطت على الأرض صارخًا :

ـ « لم أعد أستطيع الاستمرار ..!.. اتركونى أموت واذهبوا » ..!

اقترب منى البروفسير محنقًا .. وسألنى :

- « قل لى .. ألا تجد غريبًا أن تصاب بكل هذا بعد ساعتين فحسب » ؟!

ساعتين ؟.. فقط ساعتين ؟.. ظننت أننا نمشى منذ ثلاثة أيام ..!..

يا للهول !.. إذن لم يزل أمامى الكثير من هذا العذاب قبل أن أموت ..

قال البروفسير وهو يناولنى الزمزمية :

- « إننى أفهم أمثالك من ضعاف النفوس .. ما إن تسقط فى الصحراء حتى تظن - بعد ثلاث دقائق - أن من واجبك أن تموت جوعًا وظمأ وإرهاقًا .. لكن دعنى أؤكد لك أننى أفهم كل هذه الألاعيب النفسية .. فلا تعابثنى » !..

شرعت أجرع الماء شاعرًا أننى أعيش أتعس ساعات حياتى .. كان البروفسير فى حال نفسية لا بأس بها .. وعرفت فيما بعد أنه حارب فى (طبرق) يومًا ما ، إبان الحرب العالمية الثانية ، فلم تكن الصحراء قادرة على إرهابه أو إنهاكه ..

كان يمشى فخورًا منتشيًا يتقدم مسيرتنا .. وخلفه (محمود) و (أحمد) ثم أنا .. مثال البؤس والتعاسة ..

إن لون الرمال يتغير بشكل واضح ..

توقف (محمود) للحظة مفكرًا ، ثم إنه نادى البروفسير طالبًا منه ألا يتقدم أكثر .. والتقط حجرًا ثقيلاً على الأرض ، ورمى به إلى مسافة خمسة عشر مترًا .. وعلى الفور اختفى الحجر ..!.. إذن هى رمال متحركة كأن هذا كان ينقصنا ..

- « إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به .. ويسهل على العين المتشككة أن تجدها » ..

صاح البروفسير فى عصبية :

- « لكن هذا خطير جدًا .. يجب أن ندور حول هذه المنطقة » ..

عض (محمود) شفته السفلى التى بدأت تتقرح .. وقال :

- « لا داعى لهذا .. يمكننا أن نمشى فى حذر مدربين عيوننا على تجنب الرمال الناعمة أكثر من اللازم .. سنسير فى صف رباعى حتى لا يسقط أحدنا دون أن يدرى به الآخرون » ..

ثم رفع اصبعه محذرًا :

- « وليتذكر كل من يسقط فى هذه الرمال المخلخلة ، أن عليه ألا يحاول الصعود فى حركات هستيرية تزيده غوصًا .. فقط يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخى تمامًا حتى ننقذه » ..

قال البروفسير مؤمّنًا :

ـ « إن هذه الرمال كالماء تمامًا .. من يحاول أن يقف فيه يهبط لأسفل ، أما من يحاول أن يستلقى على ظهره فيظل طافيًا .. كأنها سباحة عادية » ..

ـ هذا شيء مطمئن لأننى لا أجيد السباحة » !

كانت هذه هي كلمتى التى أثارت جوًا عامًا من الوجوم .. ولم يردّ أحد ، وبدءوا يتحركون ببطء وحذر فوق الرمال ومعهم مضيت ..

لو لم تكن (البوصلة) معنا لقلت إننا ندور فى دوائر مفرغة .. أكاد أقسم أننى رأيت هذه المجموعة من نباتات الصبار عشرين مرة منذ فارقنا الطائرة ..!..

وفجأة لمحنا مشهدًا نراه للمرة الأولى ..

إنها طائرة .. طائرة ذات محرك واحد ومن طراز عتيق جدًا .. كانت واقفة على مقدمتها مدفونة فى الرمال إلى نصفها .. وجناح من جناحيها مهمشمًا تمامًا ، وكل جسمها من المعدن الصدئ المحترق ..، إنها طائرة حربية سقطت براكبها البائس منذ عشرات السنوات ووجدناها نحن ..

ـ « إنها إيطالية » ..!

هكذا هتف البروفسير وهو يجرى ليعاينها .. وشرع يدور حولها متأملًا ومتحسسًا المعدن المتآكل فى حنان حقيقى :

ـ « لابد أنها سقطت هنا منذ أربعين عامًا .. فهذا هو طراز الطائرات المميز لهذه الحقبة .. أية روعة » !..

قال (محمود) فى فتور وقد بدا عليه الحنق :

ـ « بالطبع سقط هذا السفاح ، قبل أو بعد غارة على الآمنين من أهل وطنى فى (فزان) ..!.. لقد نال جزاءه » ..

امتقع وجه البروفسير ، وبدا لنا أنه موشك على الانفجار :

ـ « أيها الشاب .. لقد كان هذا البائس جنديًا ولم يفعل سوى ما أمر به .. أنا نفسى حاربتكم لأن (الدوتشى) أمرنى بذلك » ..!

ـ « لقد ذبح مواطنوك أطفالنا .. ولا أستطيع أن أتصور أن (موسولينى) قد نادى جنرالاته إلى مكتبه ، وأمرهم أن يذبحوا الأطفال .. هم فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يفعلوه .. ثم تجد الواحد منهم بعد الحرب يقول فى براءة عذبة : لا تلومونى !.. أنا جندى ..!.. لقد فعلت ما أمرونى به » !..

لم يرد البروفسير وشرع يدور حول الطائرة فى افتتان .. ومن بين أسنانه كان يدندن لحنًا حماسيًا بالإيطالية .. واضح طبعًا أنه نشيد كان (الفاشيست) يرددونه فى أيام الحرب ، عن مجد (روما) وما إلى هذا الهراء .. ثم هتفت بكلمات ما لم أفهمها رافعًا كفه إلى السماء ..

هذا الرجل مخبول تمامًا .. ربما أكثر مما تصورنا .. والمفزع أننا معه فى قارب واحد .. إن هذه الرحلة لن تمر على خير .. أعرف هذا وأشعر به وأنتظره فى هلع !..

لقد بدأ الليل يزحف ..

★ ★ ★

بعد ثلاث ساعات :

ها نحن أولاء جالسون حول النار المشتعلة ـ التى أشعلها (أحمد) ـ نتبادل النظرات .. وظلالنا ترتمى خلفنا فوق الرمال .. لاصوت هنالك سوى فرقعة الأخشاب وأنفاسنا .. وفى يد كل منا قطعة من اللحم المقدد يلوكها بصعوبة .. الليل البهيم ـ ليل الصحراء ـ يرتمى بثقله فوق الرمال وفوق أرواحنا ..

البروفسير يداعب ألسنة اللـــهب بعصا فى يده .. و(أحمد) يميل برأسه على صدره .. وأنا غارق فى خواطرى السوداء .. حين ..

هل سمعتم ؟!..

ها هو ذا العواء الطويل الحزين تتردد أصداؤه عبر الصحراء .. ثم ترد عليه عشرات الأصوات المماثلة ..،

ها هو ذا أسوأ كوابيسى يتحقق ..

إنها الذئاب ..!..

لم يبدُ على واحد من رفاقى أنه سمع ما سمعت .. ولم تتغير جلسة أحدهم أو تعبيرات وجهه .. إلا أن (أحمد) مدّ يده إلى بندقية وشرع يجرّب تركيب إبرتها .. ثم تنهد ورفع رأسه ..

وتمضى الدقائق بطيئة ..

لابد أن الساعة كانت تدنو من منتصف الليل حين رأينا أول الذئاب ..

فى ضوء اللهب البعيد كانت عيناه تلتمعان كجمرتين ، وهو يدور حولنا فى فضول مرارًا وتكرارًا .. لابد أنه زعيمهم يحاول معرفة ما هنالك ..

التقط البروفسير قطعة من الخشب الملتهب وقذفها تجاه ذلك الزائر غير المرغوب فيه .. لكنها لم تصبه .. فقط نجحت فى إبعاده بضعة أمتار .. ثم إن (محمود) أشار إلى نقطة ما خلف ظهرى :

ـ « هناك آخرون » ..!

وثبت كالملسوع لأرى ستة أو ثمانية عيون ملتهبة تقف على مسافة عشرة أمتار منى .. إلا أن صوت (محمود) عاد ينهرنى :

ـ « لاتجر !.. اجلس كما أنت .. إن الحركات العصبية السريعة تستفزها ..

وهى لن تهاجم فردًا فى جماعة أبدًا » ..

ـ « أعرف ذلك .. ولكن هل تعرفه هى أيضًا » ؟!

كان واضحًا أن الذئاب لم تسمع بهذه المعلومة من قبل .. إذ أن أحدها اقترب منى فى تؤدة ، ورائحة أنفاسه العفنة تفعم أنفى .. ثم حنى رأسه ، وعيناه الرماديتان الجهنميتان لا تفارقاننى .. وأطبق على كم قميصى وشرع يجذبه ..!.. لم أتحرك فى البداية حتى لا أستفزه .. ثم عدلت عن ذلك ..

شرعت أحاول تحرير كمى من هذين المنجلين الحديديين دون جدوى .. فقط ازداد زئيره .. وهنا أدركت أننى فى مأزق .. مأزق حقيقى ..

إنه يجرنى معه خارج دائرة اللهب !!

٥ ـ الطـوارق ..

ـ « (محمود) !.. افعل شيئًا » ..!

ـ « هيه !.. ابتعد يا ابن الشيطان !.. اتركه » ..!

لم أكن قد غيرت وضع جلستى ، بينما كم قميصى فى فم هذا الوحش .. وأنا أحاول ألا أفقد اتزانى ... ذلك المشهد الذى ذكرنى بالكلب البوليسى حين يتعرف على متهم فى عرض ، ويجره جرًا خارج دائرة المشتبه فيهم ..

وفى رزانة وثقة مدّ (أحمد) يده إلى البندقية .. فى تؤدة صوبها نحو الذئب من مسافة لا تتجاوز مترًا .. و.. ضغط الزناد ...

دوى صوت الطلقة فى الصحراء .. وحين انقشع الدخان ورائحة البارود كانت هناك جثة ذئب ضخم ممرغة فى الرمال ، والدم ينز من جبينها .. وكنت أجلس جوارها مشتت الفكر ..

وكأنما كانت هذه هى الإشارة ..

سرعان ما اندفعت عشرة ذئاب من الظلام نحونا .. ذئب وثب فوق (محمود) فأسقطه أرضًا ، وشرع يفتش عن حنجرته .. وذئب وقف على قدميه الخلفيتين منشبًا أنيابه فى صدر البروفسير .. أما أنا فكان من نصيبى ذئب معتوه هزيل الجسد سدّ علىّ طريق الهرب ، وهو يزوم وشعر عنقه منتصب كالإبر .. كأن هذا الأبله ينقصنى ..!.. بادرته بركلة عاتية فى ذقنه جعلته يولول .. ويهرع مذعورًا وذيله بين فخذيه ..

فى حين كان نابان حادان ينغرسان فى لحم ساعد (أحمد) ..

إن الموقف سيئ .. ومن الواضح أن هذه الذئاب لا تأكل بما يكفى مما جعلها تتمرد على قوانين علم (سلوك الحيوان) .. إلا أننى أستطيع أن أجد مسدسى طالما أنا الحرّ الوحيد هنا ..

هرعت إلى حقيبتى وفككت المسدس من داخلها .. واستدرت فى الوقت المناسب لأجد ذئبين يهرعان نحوى .. كتمت أنفاسى وأحكمت التصويب .. ثم .. لمحت ذئبين يتلويان ألمًا فوق الرمال ..

وركعت على ركبتىّ ، وبدأت أضغط الزناد .. أضغط .. أضغط .. رائحة البارود .. وجثث مشعرة تتناثر .. وصدى الرصاص يدوّى ..

حتى شعرت بيد (محمود) تنشب مخالبها فى ذراعى :

– « كفى !.. كفى » !..

واصلت ضغط الزناد فى جنون ..

– « (رفعت) !.. كفى !.. لقد هربوا بعد أن مات ستة منهم » !

– « هه ؟.. » .

وتراخت عضلاتى أخيرًا .. على حين سمعت (أحمد) يقول ضاحكًا :

– « خمسة ذئاب بست رصاصات !.. هل تعترف الآن أن كل إنسان يمكن أن يتحول إلى جزار إذا ما اقتضى الأمر ذلك » ؟

هززت رأسى فى اشمئزاز .. ورميت المسدس أرضًا .. إننى أمقت السلاح . أمقته .. لكن شيطان العنف قد تحرك لثوان فى أعماقى .. وكانت كافية ..، قد يقول أحدكمَ إننى كنت مرغمًا .. لا .. كانت تكفينى طلقتان أو ثلاث .. أما ست طلقات ، فلا مبرر لها سوى أننى أصبت بحالة من الدموية لم أكن أحسبنى معرضًا لها ..



ثانيتين كنت على ركبتىّ ، وبدأت أضغط الزناد .. أضغط ..
أضغط .. رائحة البارود .. وجثث مشعرة تتناثر ..

على كل حال ، لقد نجونا من هذا الهجوم .. ولا أحد ينكر أننى صاحب الفضل الأول فى هذه النجاة !..

شرعنا نعود إلى أماكننا فى إنهاك .. على حين كوّم الطيار الجثث الستّ جوار بعضها البعض بعيدًا عنا .. وفى وجوم غدنا نحشوا أسلحتنا تحسبًا لهجمة أخرى من هذه الوحوش المتحمسة ..

مرّ ربع ساعة ثم سمعنا صوتًا ..

صوتًا آدميًا ينادى !..

فوقفنا متحفّزين لنرى ما هنالك ..

وفى الظلام لمحنا وحوشًا عملاقة تدنو منّا .. وحوشًا لها ظهر عال مدبّب وعنق طويل .. إلا أنها حين اقتربت أكثر ، عرفنا أنها جمال يمتطى ظهر كل منها رجل ملثم ضخم الجثة .. كانت تقترب فى تؤدة من النار التى أشعلناها وتدور حولها ..

ـ « السلام عليكم » !

هكذا حيانا أحد الرجال بلسان ليس عربيًا تمامًا .. فرددنا التحية بأحسن منها .. همست فى أذن (محمود) :

ـ « طوارق » ؟

ـ « كلاّ .. بل (تبو) وهم يشبهون الطوارق كثيرًا » ..

ـ « وما الفارق بينهما » ؟

ـ « الاسم » ..؟..

كان الرجال يحيطون بنا حاملين بنادقهم .. مهيبين .. غامضين ..

وكان كبيرهم يقول لـ (أحمد) وهو ما زال على جمله :

ـ « سمعنا صوت الرصاص فهرعنا إلى هنا .. لقد أدركنا أن الذئاب قد هاجمت أحدهم .. إن ناركم قد قادتنا إلى هذا المكان » ..

لم يحتج البروفسير إلى ترجمة كي يعرف موضوع المحادثة .. فالموقف يفسر نفسه بوضوح تام .. إننا سعداء الحظ .. ولقد نجونا بعد اثنتى عشرة ساعة من سقوط الطائرة ، وبالتالى لن يكون هناك جوع ولا ظمأ ..!..

حمدًا لله ..

شرع (أحمد) يحكى لهم قصتنا .. وكان اثنان منهم قد أناخا جمليهما فوق الرمال ، وتقدما نحونا ..، وعلى حين كانا يصغيان لحديثه ، شرعت أتأمل ملامحهما ..

كانا ملثمين بلثام أزرق اللون من القماش المصبوغ بالنيلة .. وكانت بشرتهما سمراء ، إلا أن أحدهما كان أزرق العينين ..

الملامح قوية صلبة مليئة بالرجولة ـ على الأقل ما بدا منها خلف اللثام ـ وكان كل منهما يحمل سيفًا مرعب الشكل ، ذا حدين وخنجرًا وبندقية عتيقة ، زخرفت بنقوش عربية بديعة ..

صاح البروفسير فى لهفة وهو يتابع المحادثة العربية :

ـ « عم تتحدثون ؟.. أنا لا أفهم حرفًا » ..!

التفت إليه وشرعت أترجم بسرعة خلاصة المحادثة .. ثم قلت إنهما يرغبان فى معرفة وجهتنا .. فقال فى دهشة :

ـ « هل هذا سؤال ..؟.. هضبة (تسيلى) طبعًا » !

كان الرجلان قد سمعا لفظة (تسيلى) وسط الألفاظ الإنجليزية ، فتلاقت عيناهما فى نظرة ذات معنى .. ولكن أى معنى ؟..

ولبضع دقائق ساد الصمت .. ثم قال أحدهما لى :

ـ « هل تصحبوننا ؟.. إننا نخيم على مسافة قريبة من هنا .. ومعنا أربعة جمال بلا راكب » ..

ـ هذا محتم ..

وفى صمت أطفأنا النار .. وحملنا حاجياتنا .. واتجهنا إلى .. إلى أربعة جمال تنيخ فوق الرمال .. يا للهول !.. كيف يمكن ركوب هذه الديناصورات ؟.. إلا أن أحد (التبو) ساعدنى على الصعود إلى ظهر جمل .. ثم أصدر له أمرًا وربّت على أنفه، فوجدتنى وكأننى فى أرجوحة معلقة من طرف واحد ..!.. أمامًا .. خلفًا .. أمامًا ..

وصراخى يملأ الصحراء .. ثم استقر الديناصور على أقدامه الأربع، وشعرت أن الأمر يتحسن .. وكأننى أرمق الصحراء من شرفة عالية ..

كانوا ما زالوا يضحكون ساخرين، حين بدأت المسيرة تتحرك .. والآن أفهم لماذا أسموا الجمل بـ (سفينة الصحراء) .. لأن الراكب فوقه يصاب بدوار البحر !.. نعم .. أنا واثق من ذلك ..

★ ★ ★

فى مخيم هؤلاء الرجال جلسنا نحسو لبن النياق الرائب، ونأكل التمر ..

كان النهار قد جاء بشمسه القاسية ورماله الملتهبة، لكن الوضع كان يختلف هذه المرة .. وشرعت أرمق - فى فضول - كل تفاصيل هذا المخيم .. كانت الخيام مصنوعة من جلد الإبل المدبوغ دون عناية ..

وهنا وهناك كانت امرأة من نسائهم تقوم بمهام يومها الرتيبة .. وأدهشنى أن النساء حاسرات الوجه، فى حين لم ينزع رجالهم اللثام إلا فى أثناء الأكل والشرب، وكان وجههن وسيمًا، فيه شيء من الجمال الخشن .. جمال الصحراء .. وكما بدأت ألاحظ، أنه كانت هناك عيون زرقاء أكثر مما كنت أتوقع ..

أما اللون الأصفر الغريب على وجوههن، فهو مسحوق من خام النحاس يعدن به الذباب .. وأما اللون الأحمر على كفوفهن وأقدامهن فهو لون الحناء التى تضعها المرأة المتزوجة ..

وكانت النساء المتزوجات يتحركن بحرية تامة، ويجلسن معنا دون حرج، أما الفتيات فلم نر منهن واحدة ..

كنت غارقًا فى هذه التأملات، حين شعرت بيد البروفسير تجذب معصمى، لأشارك فى الحديث .. كان (محمود) يتكلم شارحًا ما يريده العالم الايطالى من هؤلاء (التبو) :

- « إننا نرغب أن تشاركونا هذه الرحلة، وتقودونا إلى كهوف (تسيلى) .. وسنجزل لكم العطاء » ..

شرع الرجال يتبادلون النظرات التى لا أفهم مغزاها .. ثم قال واحد منهم ، عرفت فيما بعد أن اسمه (كريم) ، وأنه قائد هذه المجموعة الصغيرة ، وأقوى رجالها شخصية وبأسًا) :

- « سيدى .. إن الطوارق لايتحدثون كثيرًا .. قدم عرضك » ..!..

نقل (محمود) هذه الكلمات إلى البروفسير ، الذى مدّ يده إلى جيبه ، وشرع يعبث هنا وهناك ، ثم أخرج شيئًا أصفر اللون براقًا .. إنها سبيكة لا بأس بحجمها .. سبيكة ذهبية .. وصاح فى لهجة منتصرة :

- « هذه ..!.. ولكم مثلها عندما نعود من الكهوف » ..

تناول الرجل السبيكة ووزنها فى يده بخبرة .. ثم قال وقد بدا عليه الاهتمام :

- « ولماذا تدفع الثمن ذهبًا » ؟!

- « لأننى أعتقد أنكم لاتتعاملون بالعملات الورقية » ..

انحنيت جوار أذن (محمود) وهمست :

- « هل كان يحملها معه طيلة الرحلة » ؟

- « هذا واضح .. إنه حذر جدًا وقد قدر أنه سيحتاج لمعونة الطوارق فى مرحلة ما من الرحلة .. وقد كان » ..!

- « ولماذا يخبرهم أن معه سبيكة أخرى ؟.. من الممكن أن يذبحونا فى أية لحظة ليأخذوها » ..!

ابتسم (محمود) فى ثقة وهو يداعب شعره الأشعث :

- « ليس مع (التبو) .. إن هؤلاء القوم مثال الشرف .. شديدو الكبرياء ، إلى حدّ أنه لايوجد شيء يستطيع إفسادهم .. ثم إننا تحت رحمتهم على كل حال » ..!

قال (كريم) وهو يدسّ قطعة الذهب فى جيبه :

- « مادمتم تريدون الهضبة إلى هذا الحدّ .. دعونى أعرفكم على دليل لن تجدوا مثله وإن جهدتم .. وإنها لإرادة القدر » ..

وأشار إلى أحد الرجال الصامتين الجالسين جواره :

- « تكلم يا (جبريل) » ..

فى هذه اللحظة - وكأنما بعصا سحر - رمى البروفسير وعاء اللبن الخزفى .. والتمع وجهه حماسة ، ووثب من مكانه كالملسوع :

- « (جبريل) !.. (جبرين)!.. أنت ..؟!.. أنت » ؟!..

وشرع يتحسس وجه الرجل ـ الذى لم يبد علامة اهتمام واحدة ـ وهو يردد :

ـ « أنت دليل (هنرى لوت) !.. الدليل الذى قاده إلى كهوف (تسيلى) منذ عشر سنوات !!.. أنت نفسك » ..!

أعاد (جبريل) لثامه إلى وجهه فى هدوء .. وهمس :

ـ « لقد كانت رحلتى مع الأستاذ (لوت) شاقة حقًا » !

★ ★ ★

٦ ـ الكهـــوف ..

تعالى صوت المؤذن ينادى لصلاة الفجر .. فوقفنا نؤديها فوق الرمال التى يبللها الندى ، فى حين شرع البروفسير يراجع أوراقه وخرائطه ..

كانت حالته المعنوية قد تحسنت إلى حد كبير حين عرف أن (جبريل) ـ أو (جبرين) ـ الذى كان دليل (هنرى لوت) فى رحلته الشهيرة ، سيكون دليله هو أيضًا ..

و (جبرين) هو النطق الأوروبى المتعثر لكلمـــة (جبريل) .. كما أنه تحريف لكلمة (جبارين) البربرية ، التى يسمون بها الجبال ..

فرغت من صلاتى مع رجال (التبو) ، فاتجهت متثاقلًا إلى البروفسير وجلست جواره على الرمال .. ثم ابتلعت ريقى .. وسألته :

ـ « بروفسير .. إذا كان هناك من قام بهذه الرحلة ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودرسها .. فما الذى تعتزم أن نضيفه نحن » ؟!

قال الرجل دون أن ينظر لى (لأنه لم يعد يطيق رؤيتى منذ سقطت الطائرة) :

- « إننى أبحث عن الكهف الذى لم يدخلوه .. عن الحجر الذى لم يقلبوه » ..

ثم إنه فتح أمامى إحدى الخرائط، وأشار بقلمه إلى مجموعة من رسوم الكهوف المبسّطة .. وكانت حول أحدها دائرة باللون الأحمر ..

- « هذا الكهف الصغير التافه مثلًا .. لم يحاول أحدهم دخوله، لأنهم كانوا غارقين فى تدوين ما رأوه بالكهوف الكبرى وكلهم انبهار .. بالإضافة إلى أن مدخله مسدود نتيجة انهيار قديم » ..

- « وهذا هو الكهف المختار » ؟

- « لنقل إنه أحد الكهوف المختارة » ..

كان الفجر ينشر عباءته الدموية فوق الصحراء .. وأنسامه العذبة - الباردة قليلًا - تدغدغ وجوهنا .. حين اتجهنا للجمال وشرعنا نركبها ...، وكالعادة ....

هأنذا أقذف .. أمامًا .. خلفًا .. أمامًا .. وأخيرًا !!

على أن الجمل كان متعكر المزاج قلقًا إلى حدّ غير عادى .. وشعرت أنه سيقذفنى من فوقه فى أية لحظة .. ولشدة دهشتى لمحت أحد رجال (التبو) يشعل سيجارة - سيجارة من سجائرهم الملفوفة يدويًا - ويدسّها فى ... منخار الجمل !... أما الأغرب فهو أن الجمل شرع يستنشق الدخان فى نهم .. وبدأ يسترخى قليلًا ..!..

قال لى (محمود) مفسرًا ..!..

- « إن هذه الجمال مدمنة تدخين .. ولابد لها من سيجارة يوميًا !.. هذا هو ما يعرفه كل (جمّال) يجيد عمله » ..

إن غرائب هذا العالم لاتنتهى .. ويبد أننى سأظل أراها وأندهش، حتى اللحظة التى أغمض فيها عينى للأبد ..، على أننى لاأحب كثيرًا من يفسد فطرة الله فى الحيوانات العجماء على سبيل الدعابة .. كالكلب الذى يعلق الويسكى والشمبانزى الذى يدخن السيجار .. والجمل الذى يهوى التبغ !..

لكن الوقت ليس مناسبًا للانضمام إلى جمعية (الرفق بالحيوان) ..!

لقد حان الوقت كى نبدأ مسيرتنا إلى المجهول ..

* * *

إنها الحقيقة .. الحقيقة التى ستهب العلم مرونة لاتُقاس ..

* * *

حين يريد (باولو جيرالدى) شيئًا فإنه يناله .. وليس على الحاضرين إظهار امتعاضهم ..!

* * *

لو لم نر ذئابًا لشعرت أن هناك خدعة ما ..

* * *

(أحمد) !.. إلى أين أنت ذاهب ؟.. يا لك من معتوه !.. ستسقط فى إحدى الحفر ويتهشم وجهك ..

* * *

ها هى ذى الهضبة تستلقى فى استرخاء أمام أعيننا ..

وها هم (التبو) أولاء يشيرون لها ويتبادلون الكلام بلهجتهم التى لانفهمها .. فى حين يدور (جبارين) حولها بجمله فى تؤدة ..

أصوات الجمال وهى تبرك على الأرض .. ثرثرة الرجال .. عقرب ينسلّ بعيدًا عن أقدامنا باحثًا عن مكان أكثر هدوءًا ـ

ـ « احترسوا من الأفاعى لأن لدغتها قاتلة » !

قالها (محمود) وهو يتحسس موطئ قدميه ...، والواقع أن تحذيره كان فى موضعه لأن المكان كان خطيرًا حقًا ..

بشىء من تدقيق البصر تدرك أن تحت كل حجر شيئًا ما .. لابد أن تكون هناك أفعى مسترخية ترمقك فى كسل .. أو عقرب .. أو سحلية شنيعة المنظر .. أو شىء ما لاتدرى ما هو لكنه حىّ !!..

إن الصحراء كابوس حقيقى .. أنشودة الجفاف والخشونة والقسوة .. وكل ما يحيا فيها هو جاف خشن قاس .. حتى هؤلاء (التبو) المهذبون ..

كنا قد وصلنا إلى مجموعة من الكهوف الصخرية المنحوتة بفعل الطبيعة فى جسم الهضبة .. وكان (جبريل) يتفقدها بعين خبيرة وفتور كأنها صديق قديم لايثير اهتمامه ..

أما البروفسير فقد بدأت أشعر بالقلق من تدهور حالته العقلية .. كان يصرخ .. ويرقص .. ويحدث الجميع بالايطالية التى لا يفهمها سوى (محمود) .. كان انبهاره يفوق الوصف ، خاصة حين رأى علامات محفورة على مداخل الكهوف .. علامات رسمها من سبقونا .. رجال (هنرى لوت) و رجال الرحال (بريثان) ..

استعد البروفسير ليدخل الكهف الأول ، لكن (جبريل) الحاذق أوقفه فى حزم .. وأمسك بحجر .. وطوح ذراعه ليلقيه فى الداخل .. سمعنا صوت شىء يتحرك ثم ساد الصمت ..

ـ « إنه حذر » ـ قال (محمود) ـ « يريد التأكد من إبعاد الأفاعى .. وهذا حقه بلاشك » ..

وظهر مشعل أو اثنان .. وبدأنا التقدم داخل الكهف فى بطء شديد .. ظلالنا تسبقنا وتتبعنا .. ورائحة القدم والرطوبة تفعم أنوفنا .. مسيرة رهيبة لبقعة من النور المتراقص بين جدران الكهف .. إن أى شبح يسكن هذا المكان كان سيموت ذعرًا لو رآنا ..!

ـ « لا أرى شيئًا .. أين هذه النقوش » ؟

قال البروفسير وهو يرفع ضوء بطاريته إلى أعلى :

ـ « إنها فى كل مكان .. ألا تراها » ؟!

★ ★ ★

هى لغز الألغاز .. سر الأسرار .. المرآة المسحورة التى تقودنا إلى عالم آخر له مقاييس مختلفة ..

★ ★ ★

منذ مائتى قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم !

★ ★ ★

شرع البروفسير يئن .. يئن كمن يتلوى فى الجحيم .. العرق يغمر جبينه وكل جوارحه ترتجف ..

وعلى ضوء البطارية والمشاعل، كنا نرى أغرب ملحمة رآها ورسمها إنسان ..

هل ترى معى هذه الأجساد الطائرة .. الملتحمة .. المتشابكة ..؟.. رجالًا يجرون نحو أجسام أسطوانية غامضة ورجالًا كأنهم يرتدون خوذات لامعة وثيابًا فضفاضة .. نساء شقراوات ضخام الأجساد، يطرن ويرمقهن فى دهشة بشر سود ضئيلو الحجم ..

وهذا ؟.. هذا رأس يخرج منه قرنا استشعار .. الضوء يتراقص على الرسوم التى توشك أن تتحرك ... بل هى تتحرك ..

أما هذا ... لأعلى قليلًا .. لأعلى .. يمينًا .. نعم !.. هو ذا .. كأنهم رجال يرتدون زعانف الضفادع البشرية .. ألا ترى ذلك ؟

أى خيال محموم وقف هنا منذ مائتى قرن، كى يسكب على هذا الجدار الصخرى أسراره المجنونة ؟

أية عبقرية ـ فى فجر التاريخ ـ آثرت أن تترك الرمح كى ترسم ..؟.. ولأى غرض ..؟..

إن هذه النقوش رائعة الجمال لكنها ـ فى رأى ـ لا تحمل من أسرار الكون، أكثر مما تحمله خطوط طفل جامح الخيال، على هوامش كتبه المدرسية ..!..

همس (محمود) فى أذنى محاولًا ألا يفسد جو الرهبة العام :

- « ما رأيك » ؟..

تأكدت أن البروفسير لن يسمع نبرة اللامبالاة فى صوتى .. وقلت :

- « عبقرى » ..!

- « لا أتحدث عن جودة الصور .. ولكن أتحدث عن معناها ..! » .

- « هل تريد معنى لا وجود له ؟.. إن الأمر كله لا يزيد على رجل كهف يجيد الرسم » ..

- « ما زلت مصرًا » ..؟

- « بالطبع » ..

فى هذه اللحظة كان البروفسير قد أخرج كاميرا ذات فلاش وشرع يلتقط عشرات الصور لهذه الرسوم الحائطية .. حوالى خمسة آلاف رسم صغير حاول أن يلخصها فى فيلمين أو ثلاثة .. ولاحظت - فى خبث - أنه نسى أن يزيل غطاء العدسة ، مما جعلنى أشعر ببهجة وحشية .. لن ألفت نظره لهذا ، خاصة وأنه كان قد انتهى بالفعل من تدمير أفلامه الثلاثة حين لاحظت ذلك ..

إلا أننى - بعد دقائق - شعرت بوخز فى ضميرى .. فأشرت إلى العدسة بكياسة .. أطلق سبة إيطالية وشرع يعيد تعبئة الأفلام - التى لابد أنها ظلت خامًا - ويصور المشاهد مرة أخرى ..

بعد ساعة بدأ الملل يقتلنى ..

اختلست نظرة إلى رجال (التبو) ، فوجدتهم يقفون ساكنين كالصخر ، وعلى وجوههم أمارات عدم المبالاة .. إن الأمر بالنسبة لهم لا يتجاوز القيام بمهمة روتينية قاموا بها مرارًا .. وهم - مثلى - لا يرون أية روعة فى هذه الرسوم ، سوى أنها تجذب العلماء المخبولين الذين يدفعون أغلى الأثمان ..

والآن نترك هذا الكهف المملّ لندخل كهفًا آخر ..

ونترك ذلك الكهف المملّ إلى كهف أكثر إملالًا ..

لم أعد أتحمل ..

إن هذه المشاهد المكرّرة تتداخل فى ذهنى تمامًا .. وكلها تتشابه ..

وكلها لا تثير اهتمامى ..

والبروفسير يزداد حماسًا وجنونًا .. و (التبو) يزدادون لامبالاة .. و (أحمد) يزداد إرهاقًا .. إلا أننا فرغنا - أخيرًا - من أكثرها ..

حتى وصلنا إلى الكهف الصغير الذى لم يدخله أحد .. الكهف الذى سُدّت فتحته بصخرتين كبيرتين .. تقدم البروفسير وطفق يتفحص الصخرتين فى فضول .. ونظر للرجال مستفهمًا كأنه يطلب العون ..

- « لا ...! » .

قالها (كريم) فى صرامة وحزم ، بشكل لا يدع مجالًا للمزيد من الإلحاح أو الأسئلة .. إن لديهم سببًا قويًا يمنعهم من تركنا ـ أو مساعدتنا ـ لنحرك هذه الصخور ..

ـ « ولكن هذا الكهف » ..

ـ « لا ...! » .

ـ « لقد دفعت أجركم كى ... » .

« لا ...! » .

قالها (كريم) وهو يبتعد معلنًا انتهاء كشوف هذا اليوم ولم يكن فى وسعنا سوى أن نمضى خلفه مبتلعين أسئلتنا ..

* * *

كان الليل قد حلّ والرؤية غدت عسيرة نوعًا .. الموجودات قد بردت مكتسيـــة بذلك اللـــون الأزرق الغامض ، حين جلسنا حول النار نلتهم الخبز واللبن الرائب والتمر ..

كنت قد خلعت حذائى فأخذت أصابعى ترقص رقصة الألم .. كأن جريان الدم فيها يمزقها .. والانتفاخ يتزايد ..

أما البروفسير فلم يخلع حذاءه .. ولم يأكل ، فقط عيناه الزرقاوان تلتمعان فى ضوء اللهب ، تحت وطأة فكرة مجنونة تحاصره ..

ظهرت آلة وترية عجيبة ، تشبه كمانًا ذا وتر واحد أو (ربابة) أمسك بها واحد من الرجال وبدأ يعزف .... فهمست فى أذن (محمود) :

ـ « حتى هؤلاء لهم موسيقا » ؟

ـ « ولم لا ؟.. أليسوا بشرًا ؟.. هل قابلت فى حياتك وأسفارك بشرًا لا يعزفون ويغنون ، حين اجتماعهم حول النار ليلًا » ؟..

ـ « وهذه الآلة ؟.. إنها تشبه الربابة فى ريف مصر » ..

ـ « اسمها (الأمزد) .. وستسمع منها عجبًا » ..

بالفعل بدأ الرجل يغنى بصوت رخيم .. وبلهجة لا أفهمها ... أغنية حزينة تتحدث ـ بالتأكيد ـ عن الوحدة .. عن حبّ ضائع وحبيبة قاسية .. عن الصحراء .. عن ديار الأحباب .. عن كل شىء حزين يعتمل فى صدرك ، ولا تجد الجُرأة كى تفصح عنه حتى لنفسك ..

انهما دمعتان .. نعم .. دمعتان تنحدران على خدى من هذه الأغنية البربرية ، التى أسمعها فى الصحراء بهذه الكمان الكسيحة ..

وبين دموعى شعرت بالبروفسير يميل علىّ ليفسد كل شىء :

ـ « الصخرتان » !

ـ ما لهما ؟.. أى صخرتين » ؟

ـ الصخرتان على باب الكهف !.. لم يكن هذا انهيارًا جيولوجيًا ، بل وضعهما إنسان عَنوة ليسدّ المدخل » ..

ـ « ولماذا يفعل ذلك » ؟..

ـ « ثمة شيء لا يريد لنا أن نعرفه ، أو شيء لا يريد له أن يخرج .. لهذا ينبغى أن نعرف كُنه هذا الشيء » ..

وتقلص وجهه في تصميم :

ـ « يجب أن ندخل هذا الكهف .... الليلة » !

★ ★ ★

٧ ـ الكهف الذى لم يدخلوه ..

حينما نام الرجال .. تدثرت بالغطاء الصوفى الذى أعطوه لى ، وتكوّرت على نفسى جوار النار .. إن برد الصحراء قاس .. قاسٍ كنصل الخنجر ..

لابد أن الساعة كانت الواحدة بعد منتصف الليل ، حين شعرت بيد البروفسير الحازمة تهزنى هزًا .. وعلى ضوء القمر الذى لم يكتمل بعد ، لمحت وجهه القلق المتلهف .. كدت أتكلم لولا أن سدّت كفه فمى .. وهمس :

ـ « شش !.. إننى ذاهب مع (محمود) و (أحمد) لرؤية الكهف .. فهل ترغب فى أن ترافقنا ..؟.. لا إجبار هنالك » ..

همست والنوم لم يزل يداعب جفونى :

ـ « ولكن لماذا لا تنتظر للصباح » ؟

ـ « لأن الرجال سيمنعوننا من ذلك » ..

فى ثوان أعدت تقييم الموقف .. سنكون ثلاثة ـ بل أربعة ـ ولن يقتضى الأمر سوى بضع دقائق ، لأن الكهف جوارنا .. وبالطبع هو ضحل كباقى الكهوف .. فلم لا أفعل ذلك ؟!.. على الأقل سأرضى فضولى ، وأنفى تهمة الجبن التى ألصقها الإيطالى بى ..

ثم إن هناك متعة غريزية ما ، فى اكتشاف الأماكن الممنوعة .. متعة كامنة فى الوجدان الإنسانى من فجر التاريخ .. هل تذكر قصة ذى اللحية الزرقاء ، الذى أهدى زوجته قصرًا به تسع وتسعون حجرة ، يمكنها أن تتنقل بينها كما تشاء ؟.. لقد منعها من دخول الحجرة المائة .. لهذا لم تعد ترى فى القصر سوى هذه الحجرة المائة .. وعلى الرغم من تحذيره دخلتها ، فماذا رأت وماذا وجدت ؟!..

إنه ولع الإنسان بالمجهول .. الولع الذى لايرتوى أبدًا ..

وهكذا ـ وكما توقعتم ـ حشرت قدمىّ ـ اللتين انتفختا بفعل الراحة ـ فى فردتى الحذاء .. ونهضت فى خفة معهم ..

إلى الكهف الأخير ..

★ ★ ★

وقفنا أمام الكهف .. مدخله مسدود بصخرتين كبيرتين .. وثمة كتابة محفورة بحروف غريبة على إحداهما ..

على ضوء الكشاف شرعنا نتأملها .. ونتساءل ..

قال البروفسير وهو يلهث انفعالاً :

ـ « إنها أبجدية الطوارق .. حروفها مأخوذة من اللغة القرطاجية القديمة » ..

ـ وماذا تعنى » ؟

ـ لا أدرى .. لكنه تحذير للداخلين طبعًا » ..!

ثم إنه أشار لنا كى نتعاون على تحريك إحدى الصخرتين ..

وتكاتفنا نحن الأربعة وشرعنا .. نجاهد .. نجاهد .. نجاهد .. شفاهنا السفلى تنزف من أثر أسناننا .. وظهورنا تتشقق .. وعروقنا تتفجر .. لابد أن الدم ينزف من شعيرات عينى الآن .. ولابد أن عضلات ذراعى تتمزق ..

هيلا هوب ؟.. هيلا هوب !.. إنه يتحرك ..!.. لا تتراخوا يا شباب .. هيًا !.. هيًا !.. (أحمد) !.. أنت تتظاهر بالمعاونة !.. وأنت تركز الثقل ناحيتى ..!.. هوب .. هوب !.. مستحيل .. لن نتمكن أبدًا .. إننى سأصاب بانزلاق غضرو .... لقد نجحنا !.. أخيرًا ..!..

أخيرًا مالت الصخرة على جانبها ، وغدت موطئًا لأقدامنا يمكننا الصعود عليه ودخول الكهف .. إذن هيًا بنا ..

ـ « لحظة » !..

قالها (محمود) وهو يقذف حجرًا إلى داخل الكهف .. فهو لم ينس الدرس بعد .. وانتظرنا دقيقة .. ثم شرعنا نثب فوق الحجر إلى الداخل ..

وأضأنا بطارياتنا لأن الظلام كان دامسًا .. دامسًا ..

★ ★ ★

كانت رائحة العطن تملأ المكان ..

ومن السقف كانت الصخور الهوابط تتدلى ، كأنها أنياب وحش خرافى أطبق علينا .. حاولت أن أبعد هذه الفكرة من خيالى ..

أما الجدران فكانت صخورًا .. صخورًا عادية لا رسوم عليها .. مجرد صخور بلهاء فى كهف ضيق كريه الرائحة .. وبالطبع كانت خيبة أمل البروفسير هائلة ، وازداد وجوم وجهه ، كأنه كان يتوقع أن يجد سرّ الحياة فى صندوق ذهبىّ داخل الكهف ...

أخذ ضوء بطارياتنا يتحرك ببطء على الجدران ، بحثًا عن شىء ما دون جدوى .. لقد نسى ذلك الفنان الغابر أن يضع بصماته على هذا الكهف .. أو لعله سئم الأمر برمته ..

وفجأة همس (محمود) فى عصبية :

ـ « صه !.. هل سمعتم هذا » ؟

ـ « ماذا ؟ » .

تصلب قليلًا .. ثم استرخت عضلاته .. وهمس :

ـ « لاشىء ... » .

ومضينا نواصل جولتنا عبر الجدران ..

عجبًا ..!.. أكاد أقسم أننى سمعت صوتًا غريبًا أنا الآخر .. لكن الهستيريا الجماعية حقيقة لا مراء فيها .. والايحاء قوة كاسحة ..

ـ « انظروا ! » .

صاح البروفسير فى لهفة وهو يشير إلى شىء ما فى أحد الأركان ، فهرعنا إليه .. كان يشير إلى الأرض بإصبع مرتجفة ..

إنها حفرة .. حفرة حقيقية .. وعلى ضوء بطارياتنا المرتجفة استطعنا أن نرى درجات .. درجات سلم هابطة ، حفرت بعناية لا بأس بها !..

ودون كلمة أخرى شرع البروفسير يتحسس الدرجات بقدمه هابطًا فى الحفرة ، وهو يحرّك ضوء بطاريته لأعلى وأسفل ..

مددت عنقى من الفتحة وصرخت بصوت مرتجف :

ـ « أ .. بروفسير .. ماذا تفعل ؟ » .

صاح فى حنق :

- « يا له من سؤال !.. » .

- « لكن الوقت ليس مناسبًا .. لاتوجد معنا حبال ولاأسلحة ولا ....» لكنه لم يرد .. وواصل النزول منبهرًا .. هناك مصيبة ستحدث ها هنا .. نعم .. أنا واثق من ذلك بلا أدنى مبالغة ..

صرخ (أحمد) فى هلع :

- « إنه مسحور !.. أنا متأكد من ذلك !.. إن شيئًا يناديه !.. » .

انتصب شعر رأسى من هول الفكرة .. ونظرت له فى غيظ .. فليس الوقت ملائمًا لهذه الملاحظات العبقرية .. أما (محمود) فبدت عليه علامات التفكير .. قطب جبينه ثم همس لى وهو يركع على حافة الحفرة :

- « هل تعرف فيم أفكر ؟.. إلام تؤدى هذه الدرجات ؟.. ومن صنعها » ؟..

- ليست لدىّ أدنى فكرة .. » .

ابتسم فى خبث .. والتمعت نظرة شيطان يحلم فى عينيه .. ماذا ؟.. هل هو حقًا يعتقد ذلك ؟.. كلا .. إن هذا جنون ..

- « (محمود) !.. لاتقل إنك تعتقد » .

- « أنا لاأعتقد .. أنا متأكد ! » .

ابتلعت ريقى فى عصبية .. إن الفكرة مرعبة لكنها واقعية .. هل هذه الدرجات - التى صنعتها يدا إنسان ببراعة - تقود إلى عالم ماتحت الأرض ؟.. هل هذه الدرجات تهبط إلى (الأطلنطس) ؟!!..

قلت بصوت متحشرج :

- « ولكن لادليل .. على ذلك ... » .

قال بنفس الابتسامة المرعبة وهو يصلح من شأن شعره :

- « يوجد أكثر من دليل .. الرسوم العجيبة التى لايمكن أن يرسمها رجل كهف متخلف .. الكهف المسدود بصخرتين .. رعب رجال (التبو) والخرافات التى لابد أن أهلهم قد حشروها فى رءوسهم عن (سكان ما تحت الأرض) ... لهذا سدّوا المدخل والمخرج الوحيد إلى هذا العالم .. وتدريجيًا تحول مدخل هذا الكهف إلى (تابو) له قدسية المحرمات الدينية » ..

- « إذن لهذا السبب لم يدعوا (رينان) و (لوت) كى يدخلوا » ..

- « بالتأكيد ...! » .

نهضت على ركبتى ، وشرعت أنفض الغبار الذى تراكم على ركبتى ببنطلونى .. وقلت فى توتر وأنا أشعل سيجارة :

- « والبروفسير !.. يجب أن نمنعه من النزول .. » .

- « بل من الحكمة أن تكون معه ..!.. الله وحده يعلم ما يوجد تحتنا ..! » .

ثم بدأ يستعد للنزول .. واستطرد متسائلا :

- « هل معك مسدسك ؟.. نعم ؟.. هذا نبأ طيب .. إذ أننا لانملك أية أسلحة .. هل ننزل ..! » .

وبدأ يهبط فى تؤدة وأنا خلفه .. ثم (أحمد) ..

هل كان من واجبنا أن نترك أحدنا ليراقب الكهف بينما نهبط نحن ؟!.. لاأدرى .. لاأدرى حقًا ..، ولكن لاتلومونا .. فإننا لم نكن نعلم بتاتًا ما ينتظرنا بعد هذه المغامرة الخرقاء ..

لم نكن نعلم بتاتًا ..

* * *

لم نكن قد هبطنا أكثر من مائة درجة حين دوّت الصرخة .. صرخة فزع عارمة قادمة من أسفل .. ثم فوجئنا بالبروفسير يصعد السلم تجاهنا ، وهو لايكاد يرى ما أمامه .. أوقعنى .. واصطدم بـ (أحمد) .. ثم سقط بدوره جالسًا على إحدى الدرجات ، وشرع يعول كالفتيات المراهقات وقد تقلّص وجهه ..

كان يتحدث بالإيطالية كأنه مدفع رشاش مجنون .. ووقف (محمود) جواره يتابع كلماته وقد احتقن وجهه .. تساءلت فى جزع متوجس :

- « (محمود) !.. ماذا يقول » ؟..

لم يردّ الفتى وظلّ يتابع الكلمات فى اهتمام ..

- « (محمود) !.. تكلم بالله عليك » !..

قلتها وأشعلت سيجارة أخرى .. وبدأ السعال يتسرب إلى صدرى ..، قال (محمود) وهو لايفارق البروفسير بعينيه :

- « إنه خائف » !

- «يالك من عبقرى !.. وهل هذا يحتاج لمترجم» ؟!..

- « ويقول إن (الشىء) قادم .. ويأمرنا أن نهرب » ..

- « وما هو هذا (الشىء) » ؟

- « لم أفهم في الواقع .. إن حالته كما ترى وكلامه يفتقر لأى ترابط .. » ، ثم إنه نظر لساعته على ضوء بطاريته .. وغمغم :

- « على كل حال لقد صار الفجر دانيا .. ومن الحكمة أن نعود قبل أن يصحو الرجال لصلاة الفجر ويعلموا بمغامرتنا هذه » ..

قال (أحمد) وهو يمسك بيد البروفسير .. وينهضه :

ـ « ثم إن حاله لا تسمح بالتمادى » ..

وهكذا ـ ولحسن حظى ورحمة بأعصابى ـ عدنا إلى الكهف .. وخرجنا منه ثم تعاونا على إرجاع الصخرة إلى أقرب وضع ممكن لما كانت عليه .. لكن الفتحة ظلت واسعة برغم كل شىء ..

كان ضوء القمر يفترش الرمال حين عدنا إلى المعسكر محاولين أن نمنع البروفسير من الصراخ الهستيرى .. ولحسن الحظ كان الرجال جميعًا نائمين .. إن هؤلاء القوم يتمتعون بضمائر نقية والحق يُقال !..

رقدنا فوق الرمال خالعين أحذيتنا ، وشرعنا نرفع أصوات شخيرنا قدر الإمكان .. على أننا ـ بعد عشر دقائق ـ لم نعد فى حاجة للتصنع .. وذبنا فى كأس النعاس شهية المذاق ..

فى الرابعة صباحًا شعرت بيد أحدهم تهزنى لتوقظنى كى ألحق بصلاة الفجر ..

وحين بزغت الشمس لم نكن نتوقع أن تكون حال البروفسير سيئة إلى هذا الحد ..

* * *

٨ ـ النداء الغامض ..

طيلة النهار ظلّ البروفسير يهذى ويصرخ ، ويردد عبارات تهديد إيطالية يرهب بها شيئًا ما ..:

ما الذى رآه هذا الرجل ؟.. وما هو ذلك (الشىء) ؟.. إن حاله العصبية سيئة بلا جدال لكنى لا أميز سببًا طبيًا واضحًا لذلك .. ولا أستطيع أن أعاونه .. كل ما يمكننى هو أن أدس الطعام والماء دسًا فى فمه مع بعض أقراص الـ (فاليوم) المهدئة ..، وأن أزيد معدل استهلاكى من السجائر إلى أرقام فلكية .. لا أحب هذا .. لكنى متوتّر .. متوتّر ..

أما (التبو) فكانوا جالسين حولنا فى وجوم .. يرمقون المشهد من عيونهم الحادة التى لا تطرف .. إن هؤلاء القوم أشداء أمناء لكنهم لا يتعاطفون معنا بتاتًا ، ولا يحملون لنا أية مودة .. أقسم على هذا ..

إننى لفى أمس الحاجة إلى أن أذهب بعيدًا عن كل هذا .. لا أريد أن أرى حولى رمالًا ولا كهوفًا ولا (تبو) ولا أساتذة جامعة مجانين .. لكن ما باليد حيلة ..

إن قطار (القاهرة) لا يمرّ ـ للأسف ـ جوار هضبة (تسيلى) !

★ ★ ★

جاءنى (كريم) ومعه اثنان من الرجال، ووقف أمامى هنيهة .. ثم تربع أمامى على الرمال وشرع يتأملنى قليلًا .. فابتسمت فى حرج ..

ـ « سيجارة » ؟!..

قلتها مادًا يدى بالعلبة متوددًا .. لكنه ظل ثابتًا يرمقنى بعينيه الحادتين الثاقبتين .. شعور مزعج حقًا !.. لا أذكر إن كانت كلمة (سارتر) القائلة إن الجحيم هو عيون الآخرين معروفة لى وقتها .. لكننى كنت بحاجة إليها دون شك لأعبّر عما أحسه ... سمعته يقول فى رزانة :

ـ هل دخلتم الكهف أمس ؟..

ـ هه ؟!....

ـ أقول : هل دخلتم الكهف أمس ؟

ماذا أقول ؟.. هل أكذب ؟.. لكنه بالقطع لديه ما يدعوه للشك، وما أكثر ما نسيناه فى هربنا المتعجل فجر اليوم .. آثار أقدامنا والصخرة التى لم تعد أبدًا لمكانها .. و ... و ...

من الحكمة إذن ألا أفترض الغباء فى هؤلاء القوم ..

ـ « نعم دخلنا » ..!..

ساد الصمت لوهلة .. وبدا نوع من الاستسلام القدرى فى عيونهم .. ثم قال (كريم) وهو يتناول السيجارة منى وينزل اللثام عن فمه :

ـ « كنا واثقين من ذلك » ...

وأشاروا لى كى أتبعهم ..

سرنا فى صمت فوق الأحجار إلى حيث مكان الكهف .. الكهف الذى فررنا منه فرارًا فجر اليوم .. وهناك عند المدخل وقفنا نتأمل الأرض ..

لم يكن هنالك شك .. إن آثار أقدامنا واضحة جلية .. أما ما هو أكثر غرابة وإثارة للتوجّس فهو آثار أخرى .. أكبر بكثير من آثارنا وأعمق بكثير منها، آثار أقدام مخلبية تنغرس فى جشع فى الأرض .. ثم إنها تبتعد رويدًا رويدًا حتى تذوب فى الرمال فلا تعرف لها اتجاهًا ..

رفعت عينى متسائلًا .. فوجدت فى عيونهم نظرة جعلت القشعريرة تسرى عبر نخاعى الشوكى ..

★ ★ ★

قال لى (كريم) فى شىء من الضيق :

ـ « والآن .. ماذا تقول » ؟

ـ « عن أى شىء .. » ؟

نفث الدخان .. وتربع فوق صخرة مُريحا بندقيته على ركبتيه :

ـ « لقد صحا (العسّاس) ..!.. غادر سجنه الطويل » ..

ـ « العسّاس » ؟

ـ « حارس الكهف الذى لم يزعجه مخلوق منذ مائتى قرن !.. هكذا أنذرنا آباؤنا وآباء آبائنا .. والويل كل الويل لمن يجرؤ .. وهاأنتم أولاء قد جرؤتم » ..!

كان يتحدث دون غضب .. قد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت إن لهجته كانت تحوى شيئًا من الحنان الرفيق .. كأن ما سيحل بنا كاف ولا يحتاج إلى جرعة إضافية من التوبيخ ..

قلت له فى فضول :

ـ « ومن أين جاء هذا (العسّاس) » ؟

أشار بأصبعه إلى أسفل .. يعنى ما تحت الأرض .... فتساءلت :

ـ « .. ومن هؤلاء الذين يعيشون هناك » ..؟

هزّ رأسه .. وواصل التدخين ..

ـ « .. إذن أنتم لا تعرفون .. لا أحد يعرف .. فقط ترون آثارهم على جدارن الكهوف .. أليس كذلك » ؟



نفث الدخان .. وتربع فوق صخرة مُريحًا بندقيته على ركبتيه :

« لقد صحا (العسّاس) .. ! .. غادر سجنه الطويل » ..

هزّ رأسه أن بلى .. وكوّر سيجارته ورمى بها بعيدًا .. ثم حمل بندقيته ونهض فى تثاقل ..

ولم ينس أن يقول لى قبل أن يبتعد :

ـ « ستموتون ..!.. وربما نحن معكم .. كذا قال الآباء » ...!

* * *

ينبغى أن أشعل الفتيل .. ولكن أين قداحتى ؟..

* * *

أبدًا لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية ويديره فى الاتجاه العكسى ..

* * *

هأنتم أولاء قد جرؤتم ...!

* * *

كانت الشمس تنحدر غربًا حين بدأت حال البروفسير تتحسن ..

كان (محمود) متربعًا جواره يواصل وضع الكمادات على جبينه دون مبرر فى الواقع ـ فهو لم يكن محمومًا ـ سوى الرغبة فى عمل شىء ما ..!..

رفع البروفسير رأسه .. وتربّع جالسًا ..

ركعت على ركبتى جواره .. وهنأته على نجاته ، لكن ردّ فعله كان مُدهشًا .. إذ رمقنى فى حدة واستدار يسأل (محمود) :

ـ « عم يتكلم هذا المعتوه » ؟!..

ماذا ؟.. هل فقد ذاكرته أخيرًا ؟.. ولكن لا .. إنه ليس من هذا النوع طاهر السريرة الذى ينسى .. سألته فى رصانة :

ـ « بروفسير .. أنت قد مررت فجر أمس بخبرة مروعة .. أليس كذلك » ؟ استشاط غضبًا .. وصرخ فى (محمود) والرذاذ يتطاير من فيه :

ـ « ألن تُقصوا هذا المتخلف عقليًا عنى » ؟!..

وشرعنا نهدئ من روعه .. ثم بدأنا نستجوبه فى هدوء ..

عرفنا أنه يتذكر كل شىء .. نزوله للحفرة .. وكل ما فعل ، لكنه لا يذكر أن هناك شيئًا معينًا آثار فزعة ..

ـ « ربما هو خوف الأماكن العميقة » ـ قال البروفسير محاولًا إيجاد تبرير منطقى لذعره فجر اليوم ـ « .. نعم .. لابد أنه كذلك .. لقد استبد بعقلى وجعلنى مشلول الفكر » ..

تبادلت و (محمود) نظرة عدم اقتناع ..

إن خوف الأماكن العميقة لا يحدث فجأة .. ولا يسبب حالة من الهلوسة تستمر نهارًا كاملًا .. دعك من أن من يبتلون بهذا الخوف لا يتحدثون عن (شيء) رأوه .. بل هم يعلمون تمامًا أن خوفهم بلا أساس .. إما أنها حالة فقدان ذاكرة (محددة) من التى ينسى فيها المريض شيئًا بعينه ولا ينسى سواه .. وإما أنه صادق .. وإما أنه يكذب ..

ولكن فى أى شيء يكذب ؟..

يكذب فى رؤية الشيء ..؟ أم يكذب فى عدم رؤيته ؟.. أم هو يكذب فى الأمرين ؟..

لن يكف هذا البروفسير المجنون عن إثارة حيرتى وذهولى ..

* * *

والآن يزحف ليل الصحراء الكئيب ليدسّ أنفه فى قصتنا ..

وللمرة الـ.. ربما للمرة الألف .. تشتعل النار ليجلس حولها (التبو) .. ولكن هذه المرة دون غناء ودون محادثات .. فقط الوجوم والصمت ..

قال (كريم) بصوت ينذر بكارثة (وكان قد شرح الخطر علانية للجميع) .

ـ « غدا يجب أن نرحل » ..

صاح البروفسير محتجًا (وكان قد استرد طباعه السيئة) :

ـ « لكننا لم ننته بعد .. و ... » .

ـ « غدا سنرحل » !..

ثم إنه شرع يعابث ألسنة اللهب بطرف سيفه .. وقال :

ـ « أما الليلة فلابد من الحراسة » ..

ـ سننظم ورديات لهذا الغرض » ..

ـ « لا أحد يعلم ما قد يحدث .. لهذا أوصيكم بالحذر » ..

ثم أشار إلىّ معلنًا أننى سأكون الأول !.. ثم يأتى (أحمد) بعدى ..

وبعدها واحد منهم .. ثم (محمود) .. ثم واحد منهم ..

لم أفهم الحكمة من هذا الترتيب ، ثم عرفت أنهم اختاروا الأكثر مللًا ـ أنا بلا فخر ـ كى يسهر الساعات الأولى السهلة .. ثم يأتى دور أقوياء التحمل منهم ..

ذلك التدبير الذى لا أعتقد أنهم جانبوا الصواب فيه ..

* * *

مضت ساعات حراستى الثلاث فى سلام .. فيما عدا الخواطر السوداء التى ظلت تتحرك فوق رمال الصحراء هنا وهناك .. وشاب لها رأسى ..

إلا أن خاطرًا باسمًا راودنى وأنسانى كل هذا التوتر ..

لو أن المرحومة أمى رأتنى !.. من العسير أن تتصوَّر أمٌ أن ابنها ساهر الآن جوار النار فى جنوب (ليبيا) ، يحرس قافلة من الطوارق من وحش أسطورى !.. أبدًا لن تتخيل هذا حتى لو اتسع خيالها للمحيط ذاته !

إننى لكائن عجيب .. عجيب !!..

★ ★ ★

انتهت ورديتى فأيقظت (أحمد) كى يتولى الحراسة ..

وجوار النار تكومت كقط كبير مرتقبًا تلك اللحظة السعيدة التى يأتى فيها النوم بعباءته السحرية ليدقّ بابى ..

لكن ذلك الضيف المشتهى لم يأتِ ..

شرعت ـ من عين نصف مغمضة ـ أرمق (أحمد) ، وقد جلس جوار النار شاردًا بنظراته عبر المجهول .. عيناه ساهمتان والنار تترقرق بظلالها على صفحة وجهه ..

ولم أعرف ـ وكيف لى أن أعرف ـ أية تأثيرات مغناطيسية تعمل عملها المدمر فى روحه فى هذه اللحظات .. لقد كان غائبًا عن العالم غارقًا فى أمواج بحر لا وجود له .. والأمواج تعلو .. تعلو ..

ساعة كاملة أغيب عن الوعى ثم أصحو لأجده ساهمًا كما كان .

بدأت أشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام .. ووضعت نظارتى على أنفى .. إن هذا الفتى لم يبدّل وضعه طيلة ساعة كاملة ..

ثم النظرة .. هذه النظرة الجامدة لا تريحنى تمامًا ..

فلأنهض وأرَ ما دهاه .. ولكن مهلًا !.. إنه ينهض .. بالفعل ينهض .. فى تؤدة يقف على قدميه ، ثم يبدأ السير فوق الرمال خارجًا من دائرة الضوء !.. إلى أين هو ذاهب ؟.. ربما لقضاء حاجة .. لكن لا .. سأتبعه عن كثب وأحاول أن أناديه ..

كلا .. أن هذه المشية المتصلبة والوجه الجامد ، يوحيان لى بالمشى فى أثناء النوم .. ومن الخطر أن أحاول إيقاظه .. سأترك الأمر كى يتم تلقائيًا حين تفرغ شحنة التوتر النفسى التى جعلته ينهض...

كان يتحرك فى الظلام بسلاسة غير عادية .. أما أنا فكنت أتعثر وأنهض .. وأطلق اللعنات ثم أجدّ فى إثره ..

(أحمد) !.. إلى أين أنت ذاهب أيها الأحمق ؟.. يا لك من معتوه !.. ستسقط فى إحدى الحفر ويتهشم وجهك ..

كنت ألهث .. وأتحدث من بين أسنانى .. فى حين كان هو يتقدم ويجرّنى خلفه بعيدًا عن النار التى غدت نقطة بعيدة متوهجة .. والصحراء تمتد مظلمة بلا نهاية ..

كان هذا هو الوقت الذى سمعت فيه عواء الذئب .. من بعيد .. عميقًا كئيبًا مليئًا بالوحشة والتشاؤم .. ذئب وحيد ..

وتوقفت ...

لقد حان الوقت كى أتصرف فى شىء من الحكمة .. سأعود وأوقظ الرجال، ثم نتعاون فى البحث عن هذا المخبول قبل أن تمزقه الذئاب .. لن أفيده فى شىء إذا ما مزقتنى الذئاب معه ...

وإلى المعسكر عدت جريًا ...

وشرعت أوسع (محمود) و (كريم) هزًا وركلا حتى استيقظا .. وحكيت لهما - فى عبارات مختلطة - كل ما حدث ...

كان هلعى ولهاثى أكبر دليلين على فداحة ما رأيت .. لهذا نهضا مسرعين و معهما من أيقظته الضجة من الرجال ... وعلى ضوء المشاعل نقتفى الآثار الواضحة على الرمال .. وننادى :

- « (أحمد) !.. (أحمد !..) » ..

فترد علينا الأشباح مئات المرات مكررة ذات المقطع ..

وفجأة اختفت الآثار ..!.. اختلطت بفوضى من نباتات الصبار المقتلعة و آثار أقدام أخرى كثيرة ... وإلى جوارنا كان هناك منحدر يقود إلى هوة عميقة مظلمة لم نر لها قرارًا ..

قال (كريم) فى تؤدة محاولًا ألا يزيد رعبنا :

- « أعتقد أن ما حدث قد اتضح الآن !... » ..

ثم أبعد عينيه عن عيوننا المذعورة .. وأردف :

- « فى الصباح نحاول النزول لهذه الهوة بحثًا عنه » ...

لكننا عرفنا أن الأمر قد انتهى ..

ولم يعد هناك ما يقال ...

* * *

٩ ـ ثـلاثـة ..!..

حين عدنا للمعسكر وجدنا البروفسير قادمًا من بعيد .. وما إن رآنا حتى هتف فى لهفة :

ـ « هل وجدتماه » ؟

لكن وجوهنا المكفهرة القاتمة قدمت له الإجابة دون تزويق ...

قال (محمود) في دهشة :

ـ « من أين أنت آت » ؟

ـ « كنت أبحث عنه فى الجهة الأخرى علّه دار حولنا دون أن ندرى » ..

ـ « لكنك كنت نائمًا حين نهضنا للبحث » ...

ـ « إن العجائز لا ينامون بعمق أبداً يا بنى .. لا ينامون أبداً » ..

* * *

وهكذا نعود للفصل الأول من قصتى والذى بدأتها به كى أوقعك فى نفس الشرك الذى وقعت أنا فيه .. وأجرّك جرًّا إلى وسط الصحراء حيث لا مأوى ولا مهرب ...

هل تذكر ما حدث ؟..

البحث عن (أحمد) .. العثور على سترة ممزقة وآثار أقدام مخلبية ..

وأدرك الرجال أن هذا لا يعنى سوى أن (العسّاس) قد تحرك ...

ثم البحث عن الجثة .. والعثور عليها فى حال لا يمكن أن تسببها الذئاب ..

والمشادة بين الطوارق و البروفسير .. ثم إصرارى على الرحيل .. وتراجعى عن هذا القرار ...

ثم النذير الغامض الرهيب .. وانطفاء النار .. وصوت الصراخ الشنيع .. و ...

هل تذكر ذلك كله ؟..

إذن تعال نستكمل أحداث هذه القصة الكابوسية ...

* * *

لقد شعرت به ....

وشعر به الجمل من تحتى ...

نظرت حولى فلم أجد شيئًا .. فى ضوء القمر البارد لم يكن ثمة خطر ما .. لكنه كان هناك .. كان داخلى ..

كنت أعرف أنه يتبعنى ، وأنه يقترب ، لكنى لم أستطع أن أجد له أثرًا حولى ..

هل هو غير مرئى ؟..

لا .. ولاهو وهم .. إنه حقيقة .. لكنها حقيقة تفوق حواسى ..

شرعت أركل بكعبى سنام الجمل أحثه على الهرولة .. أسرع !.. أسرع !.. لكن الحيوان لم يكن بحاجة لذلك ، لأنه كان يدرك الخطر ويفهمه ويخشاه ربما أكثر منى ..

فوق الرمال يعدو .. يخبّ .. يهرول ..

ثم إنه اضطرب .. وتوقف على حين غرّة ..

وعلى ضوء القمر الشاحب رأيت شخصًا يقف أمامى محاولًا سدّ الطريق ..

* * *

كان هذا هو (محمود) .. عرفته من شعره الأشعث قبل أن أرى وجهه .. كان يرتجف وقد ارتسمت على وجهه علامات الرعب .. وكان يلهث :

- « (محمود) !.. ماذا قد حدث » ؟

- « لماذا عدت أنت أيها المعتوه » ؟!..

- « لم أتحمل .. ولكن .. هل بإمكانك أن تنيخ جملًا ؟.. إذن افعل !.. أريد أن أشعر بقدمىّ على الأرض الثابتة » ..

ساعدنى فى لهفة على النزول ..، وجوار الجمل الذى جثا على أقدامه أخذ يرتجف .. ويردد :

- « إنه مجنون !.. هذا البروفسير مجنون » !

- « لا جديد فى ذلك » ..

وأشعلت سيجارة .. وبدأت أسمع قصته ..

قال إن البروفسير استشاط غضبًا عند رحيلنا .. وطفق يدوس النيران فى عصبية حتى أطفأها .. وركل المتاع حتى بعثره .. ثم انطلق يركض فى الصحراء صارخًا صرخات مريعة ، كأنما هناك من ينتزع لسانه حيًا ..

- « إذن .. كخ !.. هذا هو سرّ الصراخ والنار ... كخ !.. المنطفئة » ..

- « لقد جريت وراءه كما لم أجر فى حياتى .. لكنه ضاع فى الصحراء .. كأنما مسّه الشيطان .. أنا لا أفهم » ..

ابتسمتُ فى ثقة ، ونفثت الدخان فى الهواء ، ثم رميت السيجارة :

- « بالعكس .. لقد صار الأمر واضحًا » ..

- « ماذا تعنى » ؟..

جلست على الرمال جوار الجمل .. وربّت بيدى على جلده الخشن :

- « إن الأمر واضح .. هذا الرجل مجنون تمامًا .. والآن حاول أن تتخيل معى ما قال وفعل طيلة الرحلة ..، أولًا هو مصاب بجنون العظمة مما جعله يتخيل أن أفكاره

هى أمور قدرية لاتتبدل ..، ثانيا : هو ملىء بالنزعات الفاشية ، وكلانا لا ننسى ما فعله حين رأى الطائرة الإيطالية المحطمة ..، ثالثًا : كان هو من نزل درجات السلم .. وهو من صرخ وبدأ الهذيان عن (الشىء) فى حين لم نر نحن ما يدعو للقلق ..، رابعًا : لاحظت أنت ـ ولاحظنا جميعًا ـ أنه لم يكن معنا حين ذهبنا للبحث عن (أحمد) .. فأين كان » ..؟!

قال (محمود) فى حيرة :

ـ « كان نائمًا وسمع كلامنا فذهب يبحث فى ناحية أخرى » ...

ـ « هذا ما قاله هو !.. ولكن أى منطق هذا ؟.. عجوز يصحو ليلًا ليجد كل من معه وقد ذهبوا فى جهة .. كيف تتخيل أن يذهب هو للبحث فى جهة أخرى ؟!.. ثم ماذا ؟.. يسير وحده فى الصحراء المظلمة دون سلاح ودون أن يخشى الذئاب ، أو ما هو أسوأ » .

ـ « ربما كان مفتونًا مثلما حدث لـ (أحمد) » ..

ـ « إذن فكيف أفاق ؟.. الواقع أننى واثق تمامًا من أن هذا الرجل يعابثنا .. إنه يعرف أسطورة (العساس) ويحاول تحقيقها حرفيًا » ..

ـ « لماذا » ؟..

تنهدت فى إرهاق .. وقلت :

ـ « لقد قابلت الكثيرين من أمثاله ، يحاولون تحقيق الأساطير بشكل متقن .. فتاة تحيى قصص المذءوبين بدافع الانتقام .. عالم يحاول إيجاد حيوانات تجارب بشرية .. طبيب يخلق ستارًا للتهريب .. قاتل يحاول إلصاق جرائمه بأسطورة إغريقية ..، إن الأسباب عديدة .. لكننى أميل إلى كون هذا الرجل مخبولًا فحسب » ..

« إذن هو قتل (أحمد) » ..

ـ « أظن هذا .. وفى الوقت الذى عدت لأوقظكم فيه » ..

ـ « وكيف شوّه جثته » ؟

ـ الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها .. وقد استنزف دمه بشكل ما ... على أنه لم يوفق كثيرًا فى استخدام أسلوب إدارة الرأس فى الاتجاه العكسى . هذا الأسلوب يذكرنا بأساطير القرون الوسطى الأوروبية ، أكثر مما يذكرنا بأسلوب أسطورة عربية .. ثمة عقل أوروبى وراءها »....

ـ وأين هو الآن » ؟

ـ « بالتأكيد يدبر لنا ميتة شنيعة أخرى » ...!

ـ « إذن علينا أن نجده فورًا » ..

ثم إننى هرشت عنقى .. وأشعلت سيجارة برغم النظرة المحتجة فى عينيه :

- « الحق أقول لك إن الإيحاء كان قويًا .. قويًا .. حتى أنا نفسى شعرت أن هذا (الشىء) حقيقة ملموسة ، وأنه آت فى إثرى .. لقد كدت أموت رعبًا .. كح !.. كح » !

- « إن الجو العام يثير الخيال إلى حد غير عادى » ..

★ ★ ★

وهكذا شرعنا نستكشف المكان متفرقين ..

كان كل منا يحمل سلاحًا .. وقد أشعلنا نارًا قرب الجمل ، لنستطيع العودة إلى مكان البدء ..

فى صمت أذرع منطقتى حاملًا مسدسى ومسترشدًا بضوء القمر .. عيناى تتحركان فى محجريهما بجنون .. وريقى جاف كزجاجة صمغ منسية !!..

الشىء الوحيد الذى يطمئننى هو أن الظل أمامى لا خلفى .. ولهذا سأجد هذا المخبول ، إذا ما باغتنى من الخلف ..

إننى أتذكر كل شىء .. عينيه الزرقاوين .. صراخه .. عصبيته .. وأشعر بكراهية عارمة تجاهه ، لا أحب أن يخدعنى أحد .. سئمت كل هؤلاء السخفاء الذين يجدون فىّ فريسة سهلة يتلاعبون بها ، ويقنعونها أن المستحيل ممكن ..

- « (رفعاااات) » !

دوى صوت (محمود) فى سكون الصحراء .. فأجفلت ..

- « د. (رفعااااات) » !

إن الصوت آت من هناك .. فلأسرع إذن ..

وهناك - فى تلك البقعة الرملية الخالية - وجدت (محمود) واقفًا وظله يرتمى على الرمال طويلًا رهيبًا ..

كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه ...

وعند قدميه كان هناك شىء ما .. كأنه قطعة رثة من الثياب .. لكنها لم تكن كذلك .. وإن تمنيت ذلك كثيرًا ..

كانت جثة البروفسير ..

جثته الممزقة وعنقه الملتوى للخلف ، وعينيه الشاخصتين .. وحين نظرت إلى الرمال وجدت ما كنت أخشاه .. آثار الأقدام المخلبية التى ألفناها تمامًا ..

★ ★ ★

- « لقد كنا مخطئين » ..

قلتها لـ (محمود) فى مرارة .. وبيد مرتجفة أشعلت سيجارة أخرى ، لم يعد الهواء يجد طريقًا إلى أية حويصلة فى رئتى .. إننى أختنق !..

لم يرد (محمود) .. فواصلت الكلام :



كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه .. وعند قدميه كان هناك شيء ما .. كأنه قطعة رثة من الثياب ..

ـ « لقد عرفنا الحقيقة بعد فوات الأوان ... كح » !

ـ ....

ـ « (محمود) !.. قل شيئًا » ....

كان وجهه يكتسى بالظلام ، والغموض يغلف ملامحه .. للحظة بدأ الرعب يتسرب إلى نفسى .. إلا أنه تكلم أخيرًا .. تكلم لكن كلماته زادت الأمر سوءًا ، لأنها خرجت متحشرجة مضعضعة بلا معنى على الإطلاق ..

ثم شرع يضحك ..

لقد تخلخل جهازه العصبى .. وهذا الضحك هو نوع من الأصوات التى يصدرها (رادياتور) السيارة قبل أن ينفجر .. هذه هى مشكلة الآخرين .. دائمًا ما يكونون أكثر قوة وصلابة منى ثم ـ فجأة ـ ينهارون تمامًا ، فى حين أظل محتفظًا بتوازنى إلى آخر لحظة ..

إن من يبدأ سباق العدو بالركض السريع لا يستمر طويلًا ...

ها هو ذا (محمود) يضحك .. ويضحك ، وقد تساقطت خصلات شعره على وجهه :

ـ « لقد مات الخنزير الفاشى !.. مات المجنون !.. ها ها ها » !

وبدأ يصفق بكفيه .. ويعتصر بطنه ... وألقى بندقيته بعيدًا ..

وهنا بدأت فكرة شاحبة تغزو أفكارى .. بدأت شاحبة ثم ازدادت وضوحًا .. والآن ها هى ذى تسطع كالشمس ..

ماذا لو كنت أنت يا (محمـــــود) صاحب هذه الألعوبة ..؟!..

لقد كان البروفسير مجنونًا .. لكنك أردت أن تعاقبه لأنه يمثل لك كل ما فعله الإيطاليون فى أهلك بـ (فزان) .. ولهذا رسمت الخطة بشكل متقن، وحاولت أن تلصق التهمة بـ (العساس) ..

وكنت تملك الوقت الكافى ـ حين تركتكما وحدكما فى الصحراء ـ كى تقتله وتغير معالم جثته .. ثم نبدأ البحث عنه فتناديني وتتظاهر بالجنون .. ولربما أنت لا تتظاهر .. أنت حقًا مجنون !..

وبعد هذا ستأتى ضحية جديدة لحارس الكهف .. طبيب مصرى نحيل اسمه (رفعت إسماعيل) .. والطوارق يجدون الناجى الوحيد من هذه المذبحة .. وكلهم يعرفون تفسير ما حدث ..

فكرة مختلطة متداخلة لكنها لم تبرح خيالى ..

يجب أن أتركه .. يجب أن أفر .. لكنه سيطاردنى لا محالة، وأنا لن أستطيع تقييده ولا قتله .. السبيل الوحيد هو أن آخذه معى إلى أن تلقى إحدى القوافل ..

وحين نصل لمرفأ الأمان سيكون من السهل أن نعرف الحقيقة ..

★ ★ ★

أنا جندى !.. لقد فعلت ما أمرونى به ..

★ ★ ★

وحين انتهت نوبة جنونه ..

وحين نظر إلى وجهى أخيرًا ..

وحين لمح النظرة العجيبة فى عينى ...

لابد أنه فهم ....

وبصوت حاولت أن أجعله رهيبًا .. قلت :

ـ « .. والآن سر أمامى ولا تتظاهر بالبراءة .. كح !.. كح !.. إننى مجنون وأنت تعلم ما يعنيه ذلك .... كح » !..

وصوبت مسدسى إلى ما بين عينيه ..

★ ★ ★

١٠ ـ اثنـــان ...!

نظر لى (محمود) فى برود .. وقال :

ـ «كان ينبغى أن أعرف ذلك يا (رفعت) .. إن كراهيتك للبروفسير قد فاقت توقعاتى .. إن عدم الاستلطاف ليس مبررًا كافيًا للقتل» ...

ابتسمت فى سخرية .. وأنا أضغط على مقبض المسدس فى عصبية :

ـ «وماذا أيضًا» ؟..

قال وهو يبادلنى البسمة الساخرة :

ـ «لقد بدأت أشك فى أمرك منذ شاهدت أسلوبك الدموى فى مواجهة الذئاب .. قلت لنفسى : إن هذا الرجل يخفى قدرًا مرعبًا من السادية ، ثم لاحظت أسلوبك المريع فى تدخين السجائر .. لايوجد إنسان بكامل توازنه العصبى ويدخن كل هذا الكمّ ..، دعك طبعًا من حقيقة أنك آخر من رأى (أحمد) على قيد الحياة .. ولعل رحيلك وعودتك أعطياك فرصة غير متوقعة للانفراد بالأستاذ» ..!

ابتسمت فى قسوة محاولًا أن أبدو مرعبًا .. وقلت :

ـ «أنت مخطئ تمامًا .. ولعلى أنا أيضًا مخطئ ..، لكنى لا أملك ترف التجربة .. إنك ستظل أسيرى حتى نجد من يخبرنا بالحقيقة .. ولاداعى أن أردد مرة أخرى أننى مجنون تمامًا» ..

ومضت دقائق نرمق فيها بعضنا بعيون حاقدة ..

لقد بدأت لعبة الشك .. لكنى أمسك بزمام المبادأة .. ولا أحب كثيرًا أن أترك له هذا الزمام .. برغم علمى أن هناك احتمالًا لا بأس به أن أكون مخطئًا ..

ماذا تفعل لو كنت مكانى ؟..

تهدده ؟.. حسن .. هذا هو ما أفعله الآن وسأفعله دومًا ..

★ ★ ★

كأن هذا سهل ..!..

أن تبقى جذوة الشك المقدسة حية فى قلبك حتى حين يطول الليل . ويثقل جفناك بعد كل هذه الانفعالات ويرتخى جسدك لكنك لن تنام .. لن تنام !

لربما ـ إذا نمت ـ كانت هذه آخر مرة !..

إن قضاء الليل مع شخص يبغى قتلك ليس سهلًا ، حتى إذا كنت أنت من يمسك بالمسدس ..

أما هو ـ الوغد ـ فقد تكوّر على الرمال وشرع يستمتع بنوم هادئ لذيذ ليغيظنى .. إنه لا يملك شيئًا يفقده ، وهو تحت رحمتى تمامًا .. لهذا نام فى سلام .. ، وتذكرت ـ فى مرارة ـ عبارة (برنارد شو) الساخرة : إذن أكثر الناس قلقًا فى السجن هو السجّان ..!

لن أنام .. لن أنام ...

(ماجى) يا ملاكى الصغير .. ماذا تفعلين فى (انفرنسشاير) فى هذه اللحظة ؟.. وماذا تفعل (هويدا) ؟.. شقيقتى (رئيفة) و أمى و (تابيثا) ..؟.. إن (عزت) له وجه أكلى البشر ، لكنه موهوب .. مثل (مختار) .. (عمر المختار) كان يتحدى (جرانتزيانى) .. و (جرانتزيانى) ترك (العلمين) بعد أن ترك هناك لافتة للذكرى كتب عليها : لم تنقصنا الشجاعة .. ولكن الحظّ .. ، الشطرنج لا يعتمد على الحظ ، لكن مصاصى الدماء لا وجود لهم .. من ذكر مصاصى الدماء ؟.. ما هى المناسبة ؟.. لا أذكر .. لكن رسالة الدكتوراة قد أنهكتنى كثيرًا .. أنهكتنى لكنى لن أنام .. لن أنام .. حينما قابل (العسّاس) أخى (رضا) لم تكن هنالك كواكب أخرى .. و .. ولن أنام .. لن أنام .. لن أنا ....

....

* * *

الشمس تحرقنى ..

ملايين البللورات تعكس ملايين الشموس فى مقلتى ..

إنه منتصف النهار ..!.. لقد نمت .. نمت !.. برغم كل المقاومة وكل الإصرار ، انتصرت (الفسيولوجيا) على حبّ الحياة .. والآن يدهشنى أننى لم أزل حيًا ..

لقد هرب (محمود) طبعًا ، لكن مسدسى ما زال فى يدى .. لقد تجنب انتزاعه من كفى كى لا أستيقظ .. وطبعًا استرد بندقيته وجمله .. إنه سفاح شريف !.. ترك لى النصف من كل شىء وقد كان يستطيع ألا يفعل .. فإما أنه مظلوم .. وإما أنه يرجئ وفاتى إلى الوقت الذى يريده هو ..

أنا أعرف أنه قريب ينتظر .. لكن أين ؟...

لو كنت إنسانًا عاديًا لركبت الجمل وبدأت السير فى الصحراء ، باحثًا عن مخرج .. لكن هل قال لك أحدهم إننى إنسان عادىّ ؟.. إننى لن أستطيع أن أجعل هذا الديناصور يقف على أقدامه أبدًا ..

وهذا يعنى أن أمرى قد انتهى ..

إلا أننى لم أجد بعد مبررًا للهلع .. إن حقيقة كونى وحيدًا ضائعًا فى الصحراء لم تتضح بعد فى ذهنى .. أعرفها لكنى لا أستوعبها بما يكفى ..

ولعلى فى سبيلى للجنون أنا الآخر .. ومن يدرى ؟...
لعل هذا أفضل ..

★ ★ ★

مشيت كثيرًا ..

لكنى لم أر أثرًا يقودنى إلى الخروج من هذا المأزق .. منذ أن تركت البروفسير فى تلك الليلة ، وأنا أدور فى دوائر مستمرة دون أن أجهد ذهنى لتذكر اتجاهى .. وبالتالى يمكن أن أكون الآن على حدود (الجزائر) أو أكون على حدود (مصر) .. لكنى لن أعرف ذلك أبدًا ..

وهضبة (تسيلى) .. هل تبخرت نهائيًا ؟..

فى كل مرة أعود إلى الجمل العزيز .. وأرشف جرعات من الماء ... على حين أخذ هو يجوّل هنا وهناك ، يداعب نباتات الصبّار بشفتيه الغليظتين ..

إننى فى مأزق ..

أما الأسوأ ، فهو أننى قد بدأت أدرك ذلك أخيرًا ...

★ ★ ★

وفى النهاية وجدت مكانًا آخر معسكرًا لـ (تبو) .. المعسكر الذى سهرت أحرسه ليلة أمس .. لا ..!.. ليلة أمس الأول .. النار المطفأة ، وبقايا المعركة حين ثار الأستاذ وبعثر المهمات وحقائبه ..

إن الكهوف قريبة جدًا من هذا الموضع .. ولكن فى أى اتجاه ؟..

شرعت أتفقد الرمال بحثًا عن شىء قد أكون نسيته أو يكون ذا نفع لى .. وبالفعل وجدت (البوصلة) الخاصة بالبروفسير .. وخريطتين .. وقلمًا من الرصاص .. وقطعتين من الحلوى .. وأصبعين من الديناميت .. فتحت الخريطة فوجدت شيئًا ذا أهمية ..

كان البروفسير قد رسم بقلم أحمر ـ واعتمادًا على كلام (التبو) ـ خطوطًا تحدد مسار قوافلهم عبر الصحراء .. وكان هذا يعنى أن أقرب موضع لهم منى يقع على مسافة خمسة كيلومترات شمالًا ..

إنها لمعلومة ثمينة .. ربما تساوى حياتى ذاتها ..

المشكلة الوحيدة هى أننى لو وصلت إلى هذا الطريق سيكون علىّ أن أنتظر ـ إلى ما شاء الله ـ حتى تمرّ بى إحدى قوافلهم .. لأنها ليست قطارًا أو حافلة يمكن انتظارها بشكل منتظم ... قد أنجو اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر .. أو ربما لا أنجو أبدًا ..!

لكنى لن أظل هنا إلى الأبد ..

يجب أن أفعل شيئًا .. أى شىء ..

★ ★ ★

إلى مكان الجمل عدت مسترشدا بآثار أقدامى على الرمال ..

وجذبت لجامه فأطاعنى .. وجررته خلفى إلى موضع المعسكر .. ثم فى اتجاه الشمال ... لم يكن لدىّ مفر من أن أمشى أمامه بدلًا من الركوب فوقه ..

كانت مسيرتنا بطيئة لكنها منتظمة ..

وقد مضت ساعتان منذ تحركنا .. وبدأ اللون الأزرق الكريه ـ لون الخوف ـ يزحف على الرمال .. سيحين المساء بعد ساعة ومعه آلاف الاحتمالات المروّعة .. ولسوف تكون ليلة طويلة حقًا ..

وفجأة تجمدت خطوات الجمل ..

رفع عقيرته إلى أعلى، وأصدر صوت خوار عميق طويل، والزبد يتساقط من شدقيه ... كانت الصحراء عارية أمامى تسبح فى بحر من الفضة ..

وعلى البعد رأيت جملًا آخر يرعى وحيدًا باحثًا عن نباتات الصبار ..

أنا أعرف هذا الجمل ..

وجوده هنا لايعنى سوى أن (محمود) قريب .. وأن كلينا نمشى فى الاتجاه الصحيح نحو الدرب الذى تسلكه قوافل (التبو) ....!

★ ★ ★

أنت مخطئ تمامًا .. ولعلى أنا أيضًا مخطئ .. لكنى لا أملك ترف التجربة ..

★ ★ ★

وعلى الرمال وجدته .. فى ضوء القمر وجدته ..

بالطبع لم يكن واقفًا على قدميه .. ولم يكن فى عداد الأحياء أساسًا ..

كان قد مات .. قُتل بنفس الأسلوب الجهنمى .. وجواره نفس الخطوات المخلبية المألوفة، ومشهد بشع آخر يُحفر فى ذاكرتى للأبد ...

مرة أخرى أكتشف أننى ظلمتُ بريئًا .. وكان ذلك فى وقت متأخر جدًا جدًا .. لقد كان المسكين يخشانى حتى الموت، فى حين كنت أرتجف هلعًا منه !.. ولقد حاول الهرب منى، لكنه لم يلحق سوى بقدره .. و (العسّاس) كان هناك .. (العسّاس) الذى بدأت الآن أدرك أنه حقيقة لا مراء فيها ..

(العسّاس) الذى ظل مئات السنين يحرس كهوف (تسيلى) كى لايحاول أحد أن يهبط لأسفل ويعرف ...

يعرف ماذا ؟.. لا أدرى .. ولن أدرى لأننى التالى فى القائمة .. إننى أنتظر دورى خارج غرفة الإعدام، حتى يفرغ الجلاد ممن سبقنى .. وقد فرغ ..! وهو الآن ينادينى كى أدخل !!..

(العساس) كان هناك ..

وهو الذى أغرقنا فى بحر من الشكوك والاتهامات المتبادلة ، وجعل كلًا منا يبتعد عن الآخرين وحده كى يلقى جزاءه ..

فقط الطوارق بحكمتهم الفطرية عرفوا هذا ، وتجنبوا الخطر .. وفى المرة القادمة حين يعودون - لن يجدوا سوى ثلاث جثث مشوّهة ، وأسطورة جديدة يحكونها لأولادهم جوار النار ليلًا ..

من يدرى ؟.. لربما أسعدنى الحظ ، وغدوت بطل أغنية بربرية جميلة ، يعزفونها على (الأمزد) بعد أجيال .....!

ماذا ستقول الأغنية ؟..

ستقول : « لقد أنذرنا الحمقى ..

لكنهم لم يصدقوا حرفًا ..

لهذا كان الحارس هو صاحب الكلمة ..

وشربت رمال الصحراء دماءهم » !..

أو أى شيء على هذه الوتيرة ..

راقت لى الأغنية وشرعت أحاول نظمها وتلحينها .. أطقطق بأصابعى وأصدر نغمات بفمى .. وأرقص .... أرقص .... فى ضوء القمر ..

لقد جننت ..!.. أعرف هذا وأحبه .. إن أهالى (بافاريا) يطلقون على المجنون كلمة (موندزوختيش) ومعناها (صريع القمر) !.. نعم .. كنت أنا قد غدوت صريع القمر .. صريع القمر .. ها ها ها !..

لقد أنذرناهم ...

والآن تشرب رمال الصحراء دماءهم ..

تشربها .....

ترالالالالا ..!!

١١ ـ واحــد ..!

والآن تأتى ساعة الحقيقة ...

لم يعد هناك مجال للمزاح .. ولا أملك ترف الهستيريا .. يجب أن أرتب أفكارى ..

كنت أعلم أن فى متاعى أصبعين من الديناميت .. ومعى قداحة ومسدس .. صحيح أن كل هذا لا يكفى لكنه بداية ..

معى جملان .. ومادمت غير قادر على ركوب أحدهما فسأستعملهما كما يستعمل خبير الإشعاعات عدّاد (جايجر) .. إن هذه الحيوانات شديدة الحساسية ، وفطرتها لا تخيب .. وحين تنتصب الشعرات فى أعناقها ، سأعرف أن شيئًا ما قادم فى اتجاهى .. شيئًا غير صديق طبعًا ...

* * *

بدأت الذئاب تعوى ..

لكنى لم أكن على استعداد لأن أخافها .. لا وقت لدىّ لهذه التفاهات ، ولن أضيع رصاصة واحدة على هذه الوحوش ..

لكن الحقيقة المروعة ..

التى لم تفارق مخيلتى أبدًا ..

هى أن الذئاب ظلت تعوى من بعيد لكنها لم تجسر على الاقتراب !..

حتى هذه الوحوش تدرك الحقيقة ..

* * *

انتهت سجائرى .. لقد نجوت من سرطان الرئة!..

* * *

كانت معى ثلاث زمزميات .. واحدة للبروفسير رحمه الله .. وواحدة لـ (محمود) رحمه الله .. وواحدة لى أطال الله عمرى !..

إننى الآن أبدأ الزمزمية الأخيرة ...

عجبًا !.. كنت أظن أن مخزون الماء لدينا أكثر من ذلك ..

لكن الظمأ لن يضايقنى كثيرًا بعد اليوم ..

* * *

عجيب هذا !.. قلت لى يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة ...

* * *

هيه !.. ابتعد يا بن الشيطان ..!.. اتركه ..!

* * *

ومضى الوقت ...

كانت الهستيريا تتسرب إلى عقلى ببطء .. وبدأت أسلى نفسى بتخيل أننى أقدم أحد البرامج النسائية فى المذياع :

ـ « سيدتى .. اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين ..!، أنا لاأعرف شكله ولاحجمه لكنى أؤكد لك أنك تستطيعين قهره .. باستخدام إصبعين من الديناميت، تنتظرين حتى يقرب ثم .. ثم تشعلين الفتيل وتلقينه عليه .. ثم انبطحى !.. لاتنسى يا سيدتى أن تنبطحى ..!.. وحينئذ .. تكونين قد نجوت !.. نجوت !.. وإلى اللقاء يا سيدتى فى حلقة جديدة مع وحش آخر » ..!

الجمل يرمقنى بنظرة ثابتة حكيمة وأنا أجن تدريجيًا .. ما أحكم هذه الحيوانات وأذكاها ..!.. لكنى لم أجنه بعد ..!.. مازال جهازى العصبى محكمًا لكنه مُرهق .. مُرهق فقط ..

* * *

والآن ـ عند منتصف الليل ـ جاءت اللحظة ..

ها هو ذا قادم من أجلى ..

فى ضوء القمر أراه بوضوح تام .. وأتجاهل ذعر الجملين .. وعواء الذئاب المتزايد .. ودقات قلبى ..

هل أصفه لك ؟.. إن هذا من حقك .. لكنه ليس فى إمكانى ..

إنك تتخيله غوريللا ضخمة .. أو تنينًا عملاقًا .. أو شيئًا يشبه (العملاق الأخضر) الذى لم نكن نعرفه وقتها ..، بل ربما تتخيله شيئًا هلاميًا .. أو كتلة من اللهب .. أو كيانًا شفافًا شبحيًا ..

فى الواقع لا .. أنت مخطئ ..

لم يكن (العسّاس) يشبه أى وحش من الوحوش التى تحترم نفسها ..

كان شيئًا يفوق قدرتى على التعبير .. نعم هو كيان ملموس .. لكنه لايبدو قريبًا من أى صورة مرعبة نعرفها ... إنه هو الوحش الذى لم يُخترع بعد .. ولهذا لاأجد صورة أقرّبه لك بها ..

كان مرعبًا .. وثائرًا .. ويريدنى ..

وهذا يكفينى ..

* * *

والآن تمسك يدى بالديناميت ...

من العجيب أننى لم أرتجف .. ولم أعد أستشعر ذرة خوف ..

علماء الفسيولوجى يقولون إنها مادة (الإندورفين) التى يفرزها المخ فى لحظات النهاية ، كى يقلل من ألمها قدر الإمكان ...

لكننى أسميها رحمة السماء ... ورأيانا لا يتعارضان فى شىء ..

يجب أن أشعل الفتيل .. ولكن أين قداحتى ؟.. لقد نسيت موضعها منذ انتهت سجائرى .. أين ؟..

آه !.. ها هى ذى .. والآن اشتعل .. اشتعل أيها الفتيل اللعين ..

إنه رطب .. ولكنه سيشتعل .. أخيرًا !..

وما إن تعالت الشعلة حتى أحكمت التصويب ورميتها عليه ، و ....

★ ★ ★

ثم انبطحى !.. لا تنسى يا سيدتى أن تنبطحى ...!

★ ★ ★

دوى الانفجار المروع على مسافة عشرة أمتار منى وتناثر الرمل فى وجهى .. لكننى كنت منهمكًا فى إشعال الفتيل الثانى .. وقبل أن يزول الدخان كنت قد ألقيت إصبع الديناميت فى إثر زميله ..

★ ★ ★

ثم انبطحى !.. لا تنسى يا سيدتى أن تنبطحى !..

★ ★ ★

. الانفجار الثانى يهز الصحراء ويحيل الليل نهارًا ..

ثم ينقشع الدخان ..

وتهدأ سحابة الرمال ..

وعندئذ وجدت (العسّاس) ما زال يتقدم نحوى بنفس البطء ونفس الثقة والتؤدة ..!..، مددت يدى إلى المسدس وأنا بعد منبطح على الأرض .. وضغطت الزناد ..

★ ★ ★

اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين ..!

★ ★ ★

بان !.. بان ..!.. لا جدوى ..!..

ثلاث رصاصات اخترقت هذا الشىء دون جدوى ...

إنه منيع كالقلاع ..

لقد انتهى الأمر ..

لكنى – على الأقل – لن أموت دون أن أنهكه جريًا بعض الوقت ، حتى لا يقال يومًا ما إننى متُّ كالحملان ..

أدرت ظهرى له وأطلقت ساقىّ للريح ..

لكنه خلفى .. أشعرُ وأشمّ أنفاسه .. إنه يقترب .. وأنا أتعثّر .. أنهض .. أسعل .. ومرة أخرى أدرك أن شرايينى التاجية سوف تخذلنى .. الألم الحارق .. الألم العاصر العنيد يبدأ فى كتفى اليسرى، ويزحف كالكابوس إلى ذراعى وإصبعى الصغرى ... لم تكن حياتى سيئة بالفعل، لكنى كنت أتمنى أن أموت ميتة أخرى .. ميتة أرقّ من هذه .. ولكن ....

فجأة لاحظت أن لون الرمال يتغير ...

ولاحظت أن سطحها أملس من اللازم :.

إنها بقعة خالية من نباتات الصبّار .. وهذا يذكرنى بشىء ما ..

★ ★ ★

إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به ..

هكذا قال (محمود) يومًا ما ..

★ ★ ★

والآن أنا أعرف ما يجب عمله ..

شرعت أدور حول الحقل بحذر شديد متجنبًا تلك الرمال مريبة الشكل .. إنه عمل خطر .. فالطبيعة لا تضع فوارق واضحة إلى هذا الحدّ .. لكنى لا أخاف شيئًا .. لم أعد أخاف ..



لكنه خلفى .. أشعر وأشمّ أنفاسه .. إنه يقترب .. وأنا أتعثر .. أنهض .. أسعل ..

إنه يتبعني ...

أريد أن أتواجد فى بقعة ما بحيث تفصلني الرمال المتحركة عنه .. وعندئذ – إذا حاول أن يصل إلىّ – تبتلعه الأرض ..

ولكنني لا أستطيع .. إننى أركض على حافة حقل الرمال وهو خلفى يسير فوق نفس خطواتى ... سيظل دائمًا بمحاذاة الخطر مثلى .. ولا سبيل لى للالتفاف إلى الجهة الأخرى ..

أدرت وجهى لأراه .....

وللمرة الأولى عاد الذعر الوحشى المجنون يهاجمنى ..

يجب أن أفرّ .. يجب ....

لم أعد أدقق كثيرًا أين تهوى قدماى ...

كلا ..!.. لن أصرخ، لأن الصراخ سيزيد هلعى، حين أفهم أن هذه الصرخات هى صرخاتى أنا ..

و ....

فى ثانية كنت أركض .. وفى الثانية التالية كنت قد توغلت ثلاثة أو أربعة أمتار داخل حقل الرمال المتحركة ..!

إن الرمال المتحركة تتحرك .. تتخلخل تحت قدمى .. إننى أغوص ..

* * *

.. وليتذكر كل من يسقط فى هذه الرمال المخلخلة، أن عليه ألا يحاول الصعود فى حركات هستيرية تزيده غوصًا .. فقط يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخى تمامًا ..

* * *

ملت بظهرى إلى الخلف .. ولمحت قرص القمر يرمقنى فى شفقة ..

شعرت بجسدى يتأرجح ثم يميل للخلف .. ويطفو .. ببطء ببطء ..

مددت ذراعىّ جانبًا محاولًا – غريزيًا – أن أزيد مساحة جسدى وبالتالى يقلّ ضغطى على الرمال ... لا بأس .. إنها طريقة لا بأس بها ..

وهنا سمعت الصوت ...

هو ذا (العسّاس) قادم من أجلى ..

ها هو ذا يخطو خطوته الأولى فى بحر الرمال ..

إنه ينغرس .. يحاول التخلص .. ينثر الرمال حوله ..

لكنه – ذلك الأحمق – لم يكن يعرف شيئًا عن قواعد النجاة من الرمال المتحركة .. ولم يكن يعرف معنى الاسترخاء ..

إنه يهبط .. يهبط .. وموجات الرمال تتراقص ...
إنه يثور .. ويصدر صرخات ترتج لها الصحراء ..
لكنه يهبط .. ويهبط .. على بعد مترين من جسدى .... يهبط ... حتى اختفى نهائيًا ..

* * *

وحينئذ .. تكونين قد نجوت .. نجوت !

* * *

انتهى (العساس) ..

نعم .. أنا واثق من ذلك ...

إنه ليس شبحًا .. إنه مجرد وحش مفزع ومنيع .. لكنه لن يستطيع الهرب من سجنه النهائى .. وهو ـ حتمًا ـ يحتاج للأكسجين مثلى ...

لقد انتهى حارس الكهف ..

ولن يعود أبدًا ....

إلا أننى لم أنجُ أنا الآخر ...

لقد كلفنى هذا اللقاء حياتى .. وعما قريب ستلتئم الرمال من فوقى .. ولن يعود هناك أنا بعد اليوم ...

لو ظللت طافيًا ساعة .. ساعتين فماذا أفعل بعد ذلك ؟

كان (محمود) ينصحنى بانتظار النجدة .. ولكن أية نجدة ؟!.. لن يجدى الصراخ فتيلا .. أعرف أنهم فى السينما يفكون حزامهم ويلقون به ليتشبث بغصن شجرة قريبة ويبدءون الزحف نحو الشاطئ ..

لكننى لا أجد أى شىء يصلح لأقذف حزامى عليه .. ثم كيف أفك حزامى دون أن أغوص أكثر ؟.. دعك بالطبع من أننى لا أرتدى حزامًا أصلًا ..!.. يا له من مأزق ..

* * *

هل أنا أحلم ....؟..

كان الواقف على حافة بحر الرمال يصيح فى لهفة :

ـ « لا تتحرك!.. سأنقذك » ..

وفى ضوء القمر لمحت وجهه .. (كريم) !.. (كريم) رجل (التبو) الذى تركته ورفاقه منذ يوم أو أكثر .. لم أعد أذكر .. ولكن كيف ومتى عاد ؟..

ولماذا ؟..

كان يلقى لى بشىء ما أمسكته يدى دون تفكير .. إنه حبل .. حبل .. وفى حركات واثقة ربط الحبل إلى ناقته وشرع يدفعها كى تسير .. ببطء شديد يتحرك الحيوان ..

وببطء شديد أرتفع .. أقترب من الرمال الثابتة على شاطئ بحر الرمال .. إننى أنجو ..!..

وهكذا وجدت نفسى راقدًا على الرمال، أرتجف وأردد كلمات لا معنى لها .. أما ذلك العظيم فقد نهض إلى ناقته، وأخذ من ركابها قربة ماء وبعض التمر .. وشرع يقدم لى الطعام والشراب بوجه صارم لا أثر فيه للحنان أو للسعادة .. أو للفخر ... وجه قُدّ من صخر ...

* * *

.. وإلى اللقاء يا سيدتى فى حلقة جديدة مع وحش آخر ..!

* * *

خاتمة ..

حين عدنا إلى مخيم (التبو)، أدركت أن هؤلاء الرجال لم يتركونا ..

لقد أدركوا أننا ضائعون لا محالة؛ لذا أرسلوا خمسة منهم كى يعودوا بنا على الرغم منا، ولو اضطروا لاستعمال السلاح ..

وكانت الآثار مختلطة، لكنهم لم يحتاجوا لذكاء كثير كى يفهموا ما حدث .. وعندما عثروا على جثة البروفسير .. ثم جثة (محمود)، فهموا أننى فى مكان ما أواجه (العسّاس) وحدى .. وعرفوا – حين سمعوا صوت الانفجارين والرصاص – أننى قرب بحر الرمال، وأننى لم أزل حيًا ...

وقد كان ....

كان (كريم) هو الوحيد الذى رأى ما حدث، وعرف أن الكابوس قد انتهى أخيرًا ...

ولولاه ....

إلا أنه لم يبدُ متفائلًا كثيرًا بالخلاص من حارس الكهف .. قد قال لى بطريقتهم المقتضبة الخالية من الانفعال :

ـ « سيعود ....! » .

ـ « لكنه كائن حىّ .. ولا يمكن أن .... »

أشار إلى أسفل .. وقال :

ـ « هناك آخرون ....! »

الحق يُقال ، أننى قد همت حبًا بهؤلاء الرجال .. الذين لا يتكلمون ولكن يفعلون .. والذين يملكون من الذكاء الفطرى وحكمة القرون ما يفوق تصورى .. ولكن ماذا يوجد بأسفل ؟

ما سر هذه الرسوم على جدران (تسيلى) ..؟

لن أعرف أبدًا إلا إذا استجمعت شجاعتى ، وحاولت العودة إلى الكهف الأخير يومًا ما ، لأنزل الدرجات التى تقودنى إلى .. إلى (أطلنطس) ؟..

ربما .. ربما فعلت ذلك يومًا ..

لكنى ما زلت أومن بأن هناك من أسرار الكون ما يحسن بالمرء أن يدعه وشأنه ....

لقد عشت أيامًا عصيبة ، وبلغت حافة الجنون .. لكنى لم أعرف أكثر .. وأبدًا لم أزدد حكمة ولا فهمًا للكون ...

إن هؤلاء الرجال العظام كانوا أكثر حكمة من البروفسير و (محمود) و (أحمد) و (منى) .. أكثر حكمة وأكثر شجاعة ..

وكان الفقراق آليًا على طريقة (التبو) ..! مصافحات عديدة .. ثم الرحيل ولا شىء آخر .. فهم قوم لا يسرفون فى العواطف ..

رحلة عسيرة عسيرة كانت أمامى فى عودتى لـ (طرابلس) ..

وذكرى قاسية أخرى تتخذ مكانها فى موضعها الصحيح على رفوف ذكرياتى ..

كنت بحاجة إلى الاسترخاء .. الاسترخاء ..

على أننى لم أعلم ـ وكيف أعلم ـ أن هناك شيئًا مثيرًا للدهشة ينتظرنى .. وأن تجربة غير عادية ستشغل تفكيرى لزمن لا بأس به ..

لكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل

القاهرة ـ ١٩٩٢

روايات
مصرية للجيب
٣٦١٤٩

ما وراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة حارس الكهف

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

اليوم نرى بأنفسنا
حقيقة تلك الكهوف.. ستزأر
العواصف الرملية .. لكننا سندخل،
ستعوى الذئاب في الظلام ... لكننا
سندخل، سيتحرك حارس الكهف
الرهيب في إثرنا والموت والدم
يتبعانه .. لكننا سندخل !!

العدد القادم : أسطورة أرض أخرى

الثمن في مصر
جنيه
٢٠٠
وما يعادله بالدولار
الأمريكي في سائر
الدول العربية

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع